نابوليون الاول

أو

النسر الاعظم

أخرجه الى العربية

يوسف البستانى

نقلا عن بعض المؤلفات الفرنسوية الشهيرة
وأخصها كتاب المسيو ارتور لافي

« الطبعة الثانية »

مطبعة الهلال
مصر سنة ١٩٢٤

مقدمة

لقد أصبت خير جزاء على اخراج رواية « فرخ النسر » الى اللغة العربية بما رأيته من ارتياح القراء الى وقائعها وحوادثها التاريخية المؤثرة ، ورأيت اليوم ان أصور لمحبي التاريخ أبا فرخ النسر الذي لقبه بعض المؤرخين بأفضل لقب يجمل بعلائه وعظمته أي « النسر الاعظم »

وليس من غرضي أن انقل تاريخ حروبه التي وضع لها المؤلفون الغربيون مئات المؤلفات وترجم بعضها الى لغتنا بل غرضي كله أن اذكر ما يظهر للقارىء « النسر الاعظم » ورب الحرب بصفاته ومزاياه وعواطفه الخاصة فيراه شاباً فأخاً فعاشقاً فزوجاً فأباً الخ . وما اخترت هذا الشطر من سيرة ذلك الرجل الفريد الا لامرين : أولها ان فيه من اللذة والعبرة ما تحلو مطالعته ، والثاني أني لا أجد — أو لا اعرف — من المؤلفات والمترجمات العربية ما هو جامع لذلك كله . وانه لحقيق بكل كاتب عربي ان يهتم بنقل النفائس الاجنبية التي ترجمت الى لغات عديدة ما خلا لغتنا ، لان فيها من فرائد الفوائد ما ينير الاذهان ويزيد « الثروة الادبية والتاريخية ».

وانا لنخدع أنفسنا اذا قلنا ان « ثروتنا » تكفي طلاب الرقي الفكري أو انها تضارع ما تملكه الامم العظمى

أما المؤلفات التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع فأخصها مؤلف المسيو أرتور لافي وهو لم يكتبه الا بعد أن درس عشرات من المذكرات والكتب التي خصت « بالنسر الاعظم » وحسبي لاظهار شأنه قول فرنسوا كوبيه الشاعر الشهير في مقدمة كتبها له « اقرأ كتاب المسيو ارتور لافي تعجب بما تراه من الترتيب الفكري وسكون النفس وعمران الضمير والترفع عن التحزب كما يجب على كل مؤرخ بالمعنى الصحيح ». واذا صح ان مايؤثر في نفس الكاتب يؤثر في كل قارىء فان هذا المؤلف الصغير الذي أقدمه للقراء الكرام لا يكون أقل أثراً في نفوسهم من « فرخ النسر » لانهما من معدن واحد واذا أخطأ ظني الغرض فحسبي ما نويته من الخدمة العامة وانما الاعمال بالنيات

يوسف البستاني

نابوليون الاول

أو

النسر الاعظم

الفصل الاول

النسر الاعظم في فقره ومسكنته

في الخامس عشر من شهر اغسطس سنة ١٧٦٩ شعرت لاتيتيا زوجة شارل بونابرت بآلام الولادة وهي في الكنيسة ، فاسرعت الى بيتها حيث ولدت على سجادة غرفتها ولداً سمته « نابوليون ». فهل كان في تلك السجادة سر من طراز ما يذكرونه في الاقاصيص والحكايات ؟ انا لا نتصدى لمثل هذا البحث ولا نريد مشاركة أهل الخرافات وانما نجتزىء بذكر ملاحظة في شأن المحيط الذي ولد فيه النسر الاعظم ، وهي أن امه صرفت الاعوام التي تقدمت زواجها في محيط تجاري مالي عند رجل سويسري من أرباب المصارف اسمه فيش (لان هذا الرجل تزوج أم والدة نابوليون بعد وفاة زوجها الاول)

فتعلمت الضبط والترتيب والنظام . فاذا صح ما يقوله الفلاسفة من ان الام تورث بنيها من اخلاقها ومزاياها فان ما اشتهر به نابوليون الاول من حب النظام والتدقيق في الحساب كان من فضل أمه لاتيتيا . وأول ما شعر به نابوليون حين ترعرع ان حالة يدته كانت تقتضي النظر والتدقيق لان الحروب أورثت آله الضنك والضيق فلم يكن لابيه الا ملك صغير لا يربو ريعه عن الف أو الف وخمسماية من الفرنكات في العام . ولكن أمه الفاضلة قابلت تلك الحال بثبت الجنان وسكون الجأش ولجأت الى حكمتها في تدبير المنزل واضمرت حزنها في قلبها الكبير

ولما بلغ جوزيف كبير ولدها وأخوه نابوليون العمر الذي يجب فيه طلب العلم ووضع الاساس للمستقبل أخذ ابوه يلتمس هنا وهناك من أرباب الكلمة والشأن ان يسعوا لولديه المذكورين في الحصول على مراكز مجانية في بعض مدارس فرنسا . وبعد التعب والوصب وتوالي الرجاء والالتماس تمكن أسقف أوتون (وكان حفيد حاكم كورسيكا مسقط رأس نابوليون) من ادخال جوزيف في مدرسة أوتون وادخال نابوليون في مدرسة بريان رجاء أن يدمجه يوماً في سلك البحرية . ولكن نابوليون اضطر قبل الذهاب الى مدرسة بريان أن يدخل الى حين مدرسة أوتون ليتعلم اللغة الفرنسوية ويصبح قادراً على الانتظام في عقد البحرية الفرنسوية . وما مضت ثلاثة أشهر على نابوليون حتى صار قادراً على التحدث والكتابة بها

وكانت اقوال المؤرخين الذين وصفوا نابوليون وهو في مدرسة أوتون منطبقة على عواطفهم الخاصة ، فجعله بعضهم اعجوبة الذكاء والعبقرية ووصفه آخرون « بطالب متكتم عنيد ميال الى الاستبداد وسفك الدماء » وربما كان القول الحق ما ذكره شاتوبريان وهو ان نابوليون لم يكن اذ ذاك الا صبياً صغيراً لا يتميز تميزاً كبيراً عن الاقران لانه دخل تلك المدرسة وهو لا يعرف اللغة الفرنسوية ولا يعرف عادات الطلاب التي كانت تختلف عن عادات اهل كورسيكا ، ولا يشعر الا بتفوقهم عليه في الثروة ومميزات اخرى فلا عجب لدى هذا كله ان يكون قليل الكلام قليل الامتزاج بالطلاب مستشعراً أثر الغربة ووجوب العزلة . ولما انتقل الى مدرسة بريان أخذت مواهبه العقلية تظهر وتتجلى ، ولكن حالته المادية كانت سيئة ومؤثرة في مسلكه بدليل قوله لكولنكور سنة ١٨١١ أي بعد ان صار امبراطوراً « اني كنت في بريان أشد فقراً من زملائي فهم كانوا يجدون المال في جيوبهم وانا لم اكن اجد شيئاً ، على اني كنت عيوفاً انوفاً افرغ جهدي حتى لا ادع احداً يشعر بافلاسي . وكنت لا اعرف الضحك واللهو كسائر الطلاب . . . ان التلميذ بونابارت كان حاصلا على علامات جيدة في دروسه ، ولكنه لم يكن محبوباً »

فالقائد العظيم والامبراطور الاعظم الذي عشقه الجيش والشعب زمناً مديداً يعترف بانه لم يكن محبوباً في المدرسة . والسر

في هذا النفور منه يظهر للباحث في امرين اولهما اجتناب نابوليون أسباب النفقة وضروب المعاشرة لفراغ جيبه والثاني سخر الطلاب به وتلقيبه « بالكورسيكي » لما رأوه من ذاك الانقباض ومن اختلاف عاداته وحالاته عما الفوه في جمهورهم ، والحقيقة ان نابوليون لم يكن يخشن الا لمن ناوأه وهزأ به بدليل ما قاله لبوريان الذي كان احد الطلاب « اما انت فاحبك لانك لا تهزأ بي . . . »

وروي ان نابوليون قال مرة لاحدهم اني سألحق بمواطنيك الفرنسويين كل ما استطيعه من الضرر ، فبنى بعض المؤرخين على هذا الكلام علالي وقصورا . ولكن المنصف لا يوافقهم على كل ما استنتجوه بل ينظر الى الاحوال التي قال فيها نابوليون تلك العبارة . فهو لم يقلها الا في ساعة غضب وفي الرد على صبية اوسعوه سخرية ولقبوه بالكورسيكي فلقبهم هو بالفرنسويين . وانْ هذا كله الا زلة لسان وكلمة طالب لا يزن ما يقوله ولا يفكر الا في جرح خصومه

وكان نابوليون مع ضيق ذات اليد وشدة المعاكسة مكباً على الدرس منقطعاً الى البحث ناجحاً في كل فروع الدروس ولا سيما الرياضيات . وكان همه بعد الدرس منصرفاً الى اخوته وآله . ولما علم ان اخاه جوزيف كان يريد الانتقال الى مدرسة بريان او متز اهتم بالامر وكان عمره لا يزيد عن ثلاث عشرة سنة فكتب الى ابيه كتاباً قال فيه « ان استاذي في الرياضيات (الاب بترول)

لا ينوي السفر فيمكن اخي جوزيف ان يأتي الى هنا ، واذا اراد ان يشتغل فانه يذهب معي للامتحان والدخول في سلك المدفعيين . . . » . فاي صبيّ في هذا العمر يظهر افضل من تلك العواطف الاخوية ؟

ولقد رمى كثيرون نابوليون بالانانية ونكران الجميل ونسيان الاصدقاء بعد الصعود الى ذروة المجد والعز ، ولكن اهل القسط والانصاف من المؤرخين نفوا عنه ذاك العيب . ومما قدموه من البراهين الدامغة تعيين بوريان الذي كان صديقه منذ عهد المدرسة كاتب سر خاص ثم اهتمامه بأمر « زميله » لوريتسون الذي رقاه الى رتبة جنرال وعينه بعد حين سفيراً له في العاصمة الروسية (فكان آخر سفير لنابوليون) وقس عليهم كثيرين من الذين كانوا زملاء او اساتذة أو اصدقاء للبطل الكورسيكي منذ ايام المدرسة . وصفوة ما يقال ان نابوليون كان حسن العواطف في المدرسة وشديد الحرص على اتباع وصايا امه الفاضلة ومتجه الفكر والقلب نحو آله ومحترماً من اساتذة ومحترماً لهم

وفي ١٥ سبتمبر سنة ١٧٨٣ امتحن الشفاليه وكيل المدارس الحربية الملكية ذاك الطالب الذي يضمر له المستقبل كل عجيبة حربية وكتب عن نتيجة امتحانه الكلمات الآتية « انه سيكون بحاراً بارعاً ويستحق ان ينقل الى مدرسة باريس »

على ان البحرية لم تقبل نابوليون لان عدد تلاميذها كان

محدوداً ولان كثيرين من الطلاب كانوا يتهافتون عليها ويلتمسون نفوذ الكبراء في الوصول اليها . فاضطر نابوليون ان يبقى في مدرسة بريان ثم رأى ان الواجب عليه لاهله يقضي بان يترك مركزه المجاني لاخيه لوسيين لان القانون لم يكن يسمح بتعليم اخوين مجاناً في وقت معاً . ولما رأى نفسه مضطراً الى العدول عن البحرية كتب الى ابيه يسأله ان يلتمس له محلا في مدرسة المدفعية او الهندسة

وفي اكتوبر سنة ١٧٨٤ تمكن من الدخول في مدرسة باريس الحربية . فدخل العاصمة الفرنسوية وليس عليه شيء من هيئة ذاك الذي سيدخلها فاتحاً وامبراطوراً عظيماً بل دخلها غريباً تدل مشيته على حداثة وصوله حتى وصفه دمرتيوس كومين احد مواطنيه « بأنه كان من أولئك الذين يعرفهم المحتالون الطرّارون بمجرد النظر اليهم » وليس يعجب ان يكون نابوليون على تلك الحال فقد وصل العاصمة الفرنسوية وليس له من العمر الا خمس عشرة سنة وعينه لم تألف منظر مدينة كباريس ، وجيبه ضامر لا يسمح له بأن ينفق عن سعة كسائر تلاميذ المدرسة الحربية . وزد على هذا كله ان فقر ابويه كان ماثلا نصب عينيه وحائلا دون تمتعه بشيء من الترف والاشتراك في اللذات والحفلات وكان صديقه برمون يشعر بما خامر نفس نابوليون فيعرض عليه ان يقرضه مبلغاً من المال فيجيبه نابوليون « ان اعباء أمي كثيرة فلا

اريد ان اضيف اليها حملا آخر باسرافي ولا سيما اذا كان الباعث عليه جنون زملائي . . »

وتكلم نابوليون مرة سنة ١٨١١ عن حالته في المدرسة فقال « ان تلك الهموم كدرت عليّ صفاء الشباب واثرت في طبعي واكسبتني الرزانة قبل وقتها . . . » ومما زاد حزن نابوليون وهو في المدرسة وفاة أبيه (سنة ١٧٨٥) وليس له من العمر الا تسع وثلاثون سنة . وهاك ما كتبه الى أمه :

« أمي العزيزة . تعزي واصبري فان الاحوال توجب علينا العزاء والصبر . ونحن منضاعف العناية بك والاعتراف بجميلك ، فاذا تمكنا من تعويضك بعض الخسارة من فقد زوج عزيز ، كنا سعداء الطالع »

وكتب الى عمه « لقد فقدنا أباً والله أعلم ما كان في صدر هذا الاب من الحنو والحب لنا . . . كل شيء وا أسفاه كان يدلنا على ان الفقيد سيكون عوننا وعضدنا في زمن الشباب . ولكن الله لم يرد ان ان يبقيه لنا وارادة الله نافذة لا مردّ لها وهو وحده قادر على تعزيتنا »

واذا نظرنا الى نجاح نابوليون في درسه بعد انتقاله الى المدرسة الحربية في باريس وجدناه لم يأت شيئاً عجباً يدل دلالة قوية على مستقبله الباهر فقد كانت نمرته ٤٢ بين ٥٨ طالباً . وكان استاذه في الالمانية (بولير) « يقول ان نابوليون حيوان لا يفهم »

خلافاً لما توسمه أهل النظر الصادق ولما حققه الزمان

ولما كانت سنة ١٧٨٥ صدر الامر بتعيين بونابارت ملازماً ثانياً في آلاي لافير . فسر سروراً عظيما كما يحدث لشاب مثله لم يتجاوز السادسة عشرة . واسرع فأوصى بصنع ملابسه العسكرية . ولكن الاخبار متفقة على ان الهندام والزخرف كانا بعيدين عن ذياك الضابط الصغير وانه اشترى حذاء ضخما ثقيلا وان فخذيه النحيفتين توارتا في البنطلون الجديد الواسع . ولما رأته فتاتان صغيرتان اسمهما سسيل ولور (والثانية هي التي صارت الدوقة دابرانتيز) لقبتاه « بالقط المبيطر » فلم يغضب نابوليون من هذا اللقب بل ذهب وأتى بمركبة فيها قط يلبس حذاء ومعه قصة مضحكة

ولما سافر نابوليون الى ڤالانس رافقه ألكسندر دي مازي الذي عين مثله ضابطاً في ألاي لافير . وعند وصوله الى ڤالانس حيث كان الالاي استقبله جبريل دي مازي أخو ألكسندر وكان ليوتينان في الالاي نفسه . ونزل بونابرت عند امرأة عزبة مسنة اسمها « مدموازيل بو » وكانت صاحبة قهوة . وهناك أخذ يظهر جانب من خلق بونابارت وهو التشبث بعاداته . فانه بقي عند تلك المرأة سحابة المدة التي صرفها هنا . وكان كلما عاد الى ڤالانس وحده أو هو وأحد اخوته ينزل عند « مدموازيل بو »

وكان نابوليون في ڤالانس مثل كل شاب لا يزيد عمره عن سبع عشرة سنة يريد أن يظهر في مظاهر الرجال . وهناك بدأ يذوق

شيئاً من طعم الحياة الطيبة بعد الضيق والمسكنة ، فتعلم الرقص على يد أستاذ اسمه دوتيل وأخذ يزور المجالس والاسر المعروفة ويرمق الفتيات ببعض النظرات

على انه لم يكن يخص باللهو وترويح النفس الا بعض أوقات الفراغ ولم يغفل المطالعة والكتابة بل أخذ يشتغل بوضع تاريخ لكورسيكا . ولما فرغ من الفصلين الاولين أرسلها الى الاب رينال فسر بهما وحضه على اتمام هذا التاريخ

وبعد حين من الزمن دعي ألاي نابوليون الى ليون حيث خيف من حدوث اضطراب فقضى شهراً في تلك المدينة ثم طلب اذناً في السفر الى كورسيكا . ولما انتهت « اجازته » سافر الى اوكسون حيث كان ألايه ، وكان صدره منقبضاً وقلبه منفطراً لما رآه من الضيق الذي حل بأمه واخوته ، وانقطع عن الملاهي والملاذ التي بدأ يألفها في فالانس ونزل عند المسيو لومبار أستاذه في الرياضيات وما كان يترك شغله الا ليتناول غذاءه في بيت صديقه أمون الذي كان أمام منزل أستاذه ثم يعود الى غرفته ويكب على الدرس . ويمكننا أن نحصر وصف حياة نابوليون اذ ذاك في الكلمات الآتية التي بعث بها الى أمه قال

« اني لا أملك شيئاً سوى الشغل ، ولا أغير ملابسي الا مرة واحدة في كل ثمانية أيام ، ولا أنام الا قليلا مذ عراني المرض ، وانا أرقد الساعة العاشرة مساء واستيقظ الساعة الرابعة صباحاً ولا آكل ،

الا دفعة في اليوم نحو الساعة الثالثة بعد الظهر »

ولخوفه من زيادة الغم والهم على قلب أمه ختم بقوله « وهذا موافق جداً للصحة » على ان خوفه وقلقه على آله وتواصل الدرس وشظف العيش — كل ذلك أضنى نابوليون وأصابه بفقر الدم حتى ان المسيو بيافالو طبيب الالاي خاف عليه سوء المغبة . وفي أول سبتمبر سنة ١٧٨٩ حمله ضعف جسمه والشوق الى آله على طلب اجازة أخرى فنالها وسافر الى كورسيكا

* * *

ولما شفي نابوليون من ضعفه الشديد عاد من كورسيكا الى اوكسون ومعه اخوه لويس وكان بودّه ان يعود وحده ولكنه رأى أمه في ضائقة مالية فأراد ان يخفف من اعبائها بتعهد أمر أخيه والانفاق عليه . وما كان للويس من العمر في ذاك الوقت الا ثلاث عشرة سنة . على ان هذا الشعور الشريف لم يخفف الا قليلا من اثقال أمه الفاضلة لانها بقيت مضطرة الى تربية سبعة أولاد ما عدا لويس . وحسبك لتعلم التقتير الذي لجأ اليه نابوليون من أجل أخيه ان تتصور انه لم يكن يقبض في آخر الشهر الا راتب ملازم ثان أي ٩٢ فرنكاً . فكيف يكفي هذا المبلغ القليل ضابطاً شاباً وأخاً محتاجاً الى العلم والغذاء والكساء ؟ ان نابوليون وجد طريقة للاكتفاء به وهي ان يحرم نفسه الجلوس في القهوات وحضور الحفلات وملاذ الزيارات ، وان يأكل في كثير من الاحيان خبزاً

جافاً وينفض غبار ملابسه بيده

وحدث يوماً بعد ما صار نابوليون امبراطوراً أن أحد الموظفين شكا قلة راتبه وكثرة عياله فقال له نابوليون « انا أعرف كل ما تقول . . . اعرفه يوم كنت ملازماً اول آكل الخبز الجاف وأوصد الباب على فقري ومسكنتي »

وكان نابوليون في اوكسون يهتم بأقل الامور في غرفته الوضيعة ، وكان من جملة ما وجد مكتوباً بخط يده في دفتر خياط اسمه بيوت ما يلي :

المطلوب من نابوليون بونابارت

س	فرنك	
٤	٤	صنع بنطلون من الجوخ
٤	١	« كلسون عدد ٢
٤	١	« تطريز

ثم ذكر ان الخياط انزل له شيئاً قليلا من أجرة الكلسونين

وكان نابوليون يهتم بتعليم اخيه في بعض أوقاته الحرة ويصرف الباقي منها في الكتابة الادبية لانه كان يرجو منها بعض الربح المادي . ولقد كابد نابوليون تلك الحال بصبر وحزم ولم يظهر شيئاً من التذمر والتأنف . قال المسيو جولي الذي قابله وهو على تلك الحال اني رأيت نابوليون طلق المحيا ولما دخلت عليه قال لي « لا شك في انك لم تحضر القداس هذا الصباح فتعالَ اذا شئت

لاسمعك اياه » ثم أخرج من صندوق ملابس كهنوتيـة لقسيس الالاي . . .

وقال المسيو سوجور ان عناية نابوليون بأخيه زادت احترام الناس له فاخذوا يبالغون في اكرام وفادته ولـكن زياراته للنـاس كانت نادرة جداً . وقيل ان الآنسة بيليه كانت تأسف لقلتها وان مدام نودين كانت تنظر بعين السرور الى زيارته لزوجها . . . ولـكن نابوليون وقف في اوائل المنحدر فلم يهو في درك الهوى .

وقد كتب في حديثه عن الحب وهو في اوكسون نفسها فقال « اني ارى الحب مضراً بمصلحة المجتمع وبسعادة الفرد ، وارى على وجه الجملة ان ضرره اكثر من نفعه »

وليس بعجيب ان يصدر مثل هذا القول عن شاب لا يجد رزقه ورزق اخيه الا بشق النفس وتراكم الشغل فان الحب لا ينمو عادة في قلب مشغول بالماديات كما ان الزرع اللطيف لا يعيش في ارض كثيرة الاشواك . وسيري القارىء من رسائل الحب التي ارسلها نابوليون بعد ارتقائه أن قلب البطل الـكورسيكي كان يخفق بين ضلوعه شوقاً وغراماً كما يخفق قلب كل انسان يحب الحسان

* * *

وفي مايو سنة ١٧٩١ رقي نابوليون الى رتبة ملازم أول وألحق بألاي المدفعية الرابع فعاد الى فالانس ومعه أخوه لويس وذهب تواً الى غرفته القديمة عند « مدموازيل بو » فوجدها مشغولة فأبى

ان يغير عادته وبقي في بيت « بو » حتى خلت الغرفة ، وما كانت حالته المالية في ذاك الوقت أفضل مما كانت في اوكسون ، فاضطر الى اجتناب الزيارات والحفلات كما كان يفعل قبل نقله الى فالانس ، وبقي مثابراً على تعليم أخيه لويس فلم يترك له كثيراً من أوقات الفراغ ولا من المرتب الضئيل . وكان يدفع المبلغ القليل الذي يبقى له بعد النفقة الضرورية قيمة اشتراكه في المطالعة باحدى المكتبات

وكان نابوليون منذ ريعان الشباب يتحمس لفكرة الثورة ويميل الى الحرية ، واندمج هناك في « جمعية أصدقاء الدستور » وعين كاتب سر لها ، وقد حفظ أعضاء تلك الجمعية آثار خطبه المملوءة نخوة وحمية ، وكان ميله الى الافكار الحرة سبباً في تغير بعض رؤسائه ورفاقه عليه وخصوصاً الشماليه ديدوفيل الذي كان مثله ملازماً أول . ولما صار نابوليون امبراطوراً كان ديدوفيل في الهجرة فأوعز اليه نابوليون بالعودة الى الوطن وعينه في احدى الوظائف . ولما استقبله نابوليون بعد رجوعه قال لحاشيته « هذا احد رفاقي القدماء الذين اشتد النزاع بيني وبينهم في فلانس لأجل دستور ١٧٩١ »

وبعد حين التمس بونابارت من الجنرال تايل ان يحصل له على أجازة ففعل برغم معارضة الكولونيل الذي كان الالاي تحت امرته . فسافر بونابارت واخوه لويس الى كورسيكا حيث قابل امه

واخوته . وهناك عين في رتبة قائمقام للمتطوعين الوطنيين وقيل انه ما التمس هذا المركز الا لرغبته في مساعدة امه واخوته من الوجهة المالية . واتفق ان كولونيل الالاي أصدر اليه أمراً موجباً للشك والريب فأبى تنفيذه فعزله . ثم دعي نابوليون الى باريس فأوضح الامر لوزير الحربية فأعاده الى الجيش العامل وأمره بأن يعود الى كورسيكا ليستلم فيها قيادة الحرس الوطني

ومما يذكر هنا ان نابوليون قاسى ضيقاً شديداً سحابة المدة التي قضاها في باريس لتبرئة نفسه والرجوع الى الجيش ، حتى اضطر الى رهن ساعته عند فوفيليه اخي صديقه وزميله بوريين ، ولما التقى بذاك الصديق في باريس سرّ به سروراً بالغاً وذكر بوريين ما كان من أمرهما قال « ان صداقتنا عادت الينا تامة كما كانت في المدرسة . على اني لم اكن سعيداً مع نابوليون لان وطأة الضيق والمسكنة كانت ثقيلة عليه فكنا نقضي ايامنا كما يقضيها شابان في الثالثة والعشرين وليس في جيبهما الا شيء قليل من النقود ، وكنت أنا أحسن حالا منه . ولطالما بحثنا عن ضروب من المضاربة لنكسب من ورائها شيئاً . وكان من جملة ما خطر ببال نابوليون حينئذ ان يستأجر عدة بيوت جديدة ليؤجرها لآخرين ويربح الفرق ولكن أصحاب الملك أقاموا من سبيلهما العقبات لقلة مالهما . وكانا يأكلان في مطعم صغير في شارع فالوا ، وكثيراً ما كان بوريين يدفع كل المطلوب لانه كان أحسن حالا كما تقدم

ولقد شهد نابوليون في ذاك الحين هياج العامة ورأى نحو خمسة أو ستة آلاف من الرعاع المسلحين يصيحون ويتجهون نحو قصر الملك فقال لصديقه بوريين « تعال نتبع هؤلاء السفلة » . ولما رأى الملك لويس السادس عشر في وسطهم لابساً قبعة حمراء صاح نابوليون قائلاً « كيف تركوا هؤلاء الرعاع يدخلون ؟ لقد كان من الواجب ان تنظف قنابل المدافع اربعمائة أو خمسماية منهم ثم تدع الباقين يركضون »

وفي ذاك الحين أخذ يشعر نابوليون بنفور شديد من ترك السلطة للعامة . وكتب الى اخيه جوزيف في ٣ يوليو سنة ١٧٩٢ يقول « ان زعماء الثائرين من زمرة المساكين فكلٌ منهم يبحث عن مصلحته الخاصة ، والدسائس اليوم هي أدنى مما كانت في كل زمان . . . وجلُّ ما يتمناه المرء هو دخلُ أربعة أو خمسة آلاف فرنك والحياة الهادئة ومحبة الآل والاخوان . . . »

وفي ذاك الحين أيضاً رأى نابوليون مقتل بقية انصار الملك وسوقه الى الجمعية الوطنية . فشعر بخوف شديد على امه واخوته من الحوادث المتوقعة في كورسيكا وغيرها ولكن انتظار القرار المنوط بوظيفته اضطره الى البقاء في العاصمة

وفي ١٣ أغسطس من تلك السنة صدر الامر باخلاء جميع المدارس الملكية فذهب نابوليون مسرعاً الى سان سير فاخرج اخته اليزا من مدرسة البنات . وفي ٣٠ من الشهر المذكور صدر الامر باعادة نابوليون الى رتبة كبتن في المدفعية وبالاذن له في السفر

الى كورسيكا فسافر هو واخته الى ليون ثم برحها عن طريق نهر الرون فقابلته مدامو ازيل « بو » صاحبة الفندق الصغير في فالانس والسيدة ميزانجير وقدمتا له سلة من العنب . وفي ١٧ سبتمبر وصل نابوليون واخته الى اجاكسيو حيث اجتمعت عائلة بونابارت كلها لاول مرة منذ ثلاث عشرة سنة . ولولا الفقر والمسكنة التي كانت تحيق بها لـكان سرور أعضائها عظيماً . وقيل ان المورد الوحيد الذي كانوا يعتمدون عليه حينئذ ويرجون منه دفع غائلة الجوع هو مرتب نابوليون

وكانت ام نابوليون تجلس معه بعد رقاد أولادها الصغار وتظهر قلقها الشديد على مستقبل بناتها فيعمد نابوليون الى تطييب نفسها وتسكين جأشها ، وقد قال لها مرة « اني ساذهب الى الهند ثم أعود بعد سنوات قليلة بمال وافر واخصُّ كل واحدة من اخواتي الثلاث بمبلغ منه . . . »

وفي تلك الايام اشتدت دسائس زعيم كورسيكي اسمه باسكال باولي وقام نزاع شـديد بينه وبين نابوليون لان باولي كان يريد الحاق الجزيرة بانكلترا وحدث وقتئذ ان الجنود الفرنسوية فشلت في جزيرة مادالين وكاجلياري فاشتد ساعد باولي وتمكن من تأليف حكومة وقتية لـكورسيكا وأمر بنفي آل نابوليون كلهم . وكان نابوليون قد استشعر الخطر المقبل فبرح كورسيكا ولـكنهُ علم في طريقه بالقرار المتعلق بآله فاخذ يتنازعه عاملان عامل الواجب لعائلته

وعامل الخطر الذي يتهدده ولكن تردده لم يطل فعاد قاصداً بلده لينقذ أهله ولما وصل الى باب مدينة اجاكسيو علم ان أمه وسائر آله غير مهددين بخطر داهم وأنهم انطلقوا الى كالفي فاسرع الى حيث كانوا ثم أبحروا جميعاً الى مرسيليا بينما كان رجال باولي يحرقون وينهبون أملاكهم

وكان وصول نابوليون وأمه الى مرسيليا في يونيو سنة ١٧٩٣ وقد وصف اخوه لوسيين حالة «لاتيتيا وأولادها» في مذكراته فقال «كان نابوليون يخص معظم مرتبه بتخفيف اعباء أمه وسد حاجة اخوته وتمكنا من الحصول على جراية من الخبز وبعض المساعدة بصفتنا مهاجرين وطنيين فكان هذا العون كافياً لنا على قلته لان أمنا الفاضلة كانت مدبرة مقتصدة»

وكان من جملة الذين ساعدو أرملة بونابارت وأولادها في مرسيليا الموسيو كلاري من كبار تجار الصابون فان قلبه رقّ لحال تلك السيدة وأولادها وتوثقت العلاقات الودية بين الاسرتين وما مضت سنتان حتى تزوج جوزيف جولي ابنة ذاك التاجر ثم جرى حديث عن قرب اقتران نابوليون باختها دزيريه، ولكن يد الدهر كتبت لها ان تكون بعد حين زوجة لبرنادوت

وبعد حين سافر نابوليون من مرسيليا الى مدينة نيس حيث كان الالاي الرابع مع جيش القائد كارتو فاخذ ينتقل معه من مدينة الى اخرى في جنوبي فرنسا ويخمدوا فتنة الذين هبوا لمعارضة الدستور

وفي ليل ٢٧ — ٢٨ اغسطس حدثت الخيانة العظيمة بتسليم ثغر طولون للانكليز فاسرع جيش بارتو (ومعه الاي بونابارت) نحو تلك المدينة لاسترجاعها فاستولى اولا على موقع اوليول وفي ابان القتال جرح قائد الطوبجية دومارتين فعين نابوليون خلفاً له . ومع ان الجنرال دي تايل كان صاحب الامر في المدفعية لم يشأ خوفاً من المسئولية أو ثقة بالضابط نابوليون ان يتولى هو القيادة الفعلية للمدفعية ، وهناك كان ابتداء شهرة نابوليون وفاتحة مجده الحربي

وفي ٢٢ دسمبر أي بعد اخراج الانكليز من طولون ببضعة أيام صدر الامر بترقية نابوليون الى رتبة جنرال . على ان اسمه لم يكن معروفاً بين الفرنسويين . ولما أبلغ الضابط جونو أباه انه سيكون ياور الجنرال بونابارت كتب اليه يقول « لماذا تركت القائد لابورد . ولماذا تركت فرقتك ؟ ومن هو الجنرال بونابارت وأين خدم ؟ اني لا أعرف احداً يعرفه . . . »

وكان عمر نابوليون في ذاك الحين لا يزيد عن خمس وعشرين سنة فلم يأخذه الزهو والكبر لحصوله على تلك الرتبة العالية ولم ينس أمه واخوته بل ازداد عناية بهم وعطفاً عليهم . قال اخوه لوسيين « ان ترقية نابولبون أدت الى تحسين حالنا ، وقد ذهبنا الى قصر ساليه لنكون على مقربة من معسكره العام ، فكان يقضي معنا كل أوقات الفراغ »

وتمكن نابوليون من تعيين اخيه لويس ياوراً براتب ملازم

أول وأبقاه معه . وادخل اخاه جوزيف في احدى الوظائف

وفي ذاك الحين أراد روبسبير الصغير ان يولي نابوليون قيادة الحامية الباريسية ، فاخذت اسرة بونابارت تتحدث في هذا الشأن فقال نابوليون « ان روبسبير الصغير رجل عامر الذمة ، ولكن اخاه لا يمزح وهو يريد أن اخدمه وانفذ مقاصده وأنا لا أريد ان أخدم مثل هذا الرجل . . . أنا لا أرى لي محلا شريفاً في هذا الوقت الا في الجيش . فلا تضيقوا صدراً واعلموا اني مأكون قائد باريس ولكن بعد حين . . . »

على ان الزمان أراد ان يدخله الحبس قبل ان يذهب الى باريس قائداً وامبراطوراً ويصبح قادراً على اخراج المساجين . وسبب حبسه ان «القومسير ريكور» فوض اليه مهمة سرية وارسله الى جنوى فقامت الشكوك والريب حول نابوليون ولما عزل ريكور صدر الامر بالقبض على بطل طولون للتحقيق فجيء به من نيس الى حصن كاريه ، فاستولى القلق العظيم على امه واخوته واصدقائه واسودت الدنيا امام ذاك القائد الشاب لان الحبس في ذاك الوقت كان على الغالب اول مرحلة من طريق الغليوتين

ولكن نابوليون لم يسترسل الى الجبن واليأس بل ظهر في المظهر الذي تميز به سحابة العمر ، مظهر الثبات والحزم امام الخطوب والكروب ، وكتب الى أليت وساليساتي اللذين استصدرا الامر بالقبض عليه قال « اني خدمت الوطن في طولون وأحرزت شيئاً من الامتياز وكان

لي نصيب من الفوز الذي ناله جيش ايطاليا ،في سورجيو وتارانو . فكيف انزل تحت الشبهات قبل سؤالي وسماع جوابي ؟ انهم جعلوني موضع الريب ثم ألقوا الحجز على أوراقي مع أن الواجب يقضي بحجز أوراقي وطلب الايضاح مني وبعد ذلك أرمى بالشبهات ان كان هناك مسوّغ »

رمى جماعةٌ من المؤرخين نابوليون بالتجرد من العواطف الانسانية الطيبة فاذا أراد القارىء ان يعرف قيمة هذا الزعم وجد البرهان الدامغ على بطلانه فيما جرى بينه وبين ساليساتي . فان البطل الكورسيكي علم في يونيو من سنة ١٧٩٥ أي بعد سنة لحبسه ان ساليساتي (وكان وقتئذ فاراً من وجه الحكومة) لجأ الى منزل بيرمون حيث كان نابوليون يتناول الغداء كل يوم فتجاهل نابوليون وجود ذلك الرجل الذي اضطهده واكتفى بان يرسل اليه بعد هربه الى بوردو كتاباً قال فيه « رأيت يا ساليساتي اني كنت قادراً على مقابلة الشر بمثله . ولو فعلت لثأرت لنفسي من رجل أنزل بي الضرّ وما رميته باهانة أو شر ، فاذهب بسلام وابحث عن ملجأ تأوي اليه ريثما يتحسن شعورك الوطني »

* * *

ثم رجع نابوليون الى مدينة نيس في ٢٤ أغسطس بعد ان قضى ثلاثة عشر يوماً في الحبس ، وهناك اشترك في مظاهرة قام بها الجيش وصدر الامر بتعيينه قائداً لبطاريات الحملة البحرية التي

أرسلت الى سيفيتا فكشيا ولكنه ما لبث ان عاد مع حملته الى طولون لان البوارج الفرنسوية لم تستطع يومئذ أن تقهر البوارج الانكليزية . وبعد أيام صدر الامر بصرف رجال الحملة فاصبح الجنرال نابوليون بلا منصب . وفي أوائل ابريل سنة ١٧٩٥ سافر الى مرسيليا حيث تلقى أمراً بالسفر الى مركز الجيش الفرنسوي المعروف بجيش الغرب والموكل باخماد الفتنة الاهلية فاستاء نابوليون من هذا الامر لانه قضى بنقله الى جيش يصادم الفرنسويين بدلا من ان يكون في جيش يقاتل الاجانب . وما نزل على قلبه شيء من التعزية الا عند تفكيره في تحسين حالة أمه وأخواته الثلاث وأخيه جيروم . (أما أخواه جوزيف ولوسيين فقد كانا متزوجين يومئذ)

وبعد حين تولى وزارة الحربية كبتن قديم اسمه أوبري فعين نفسه فريقاً ومفتشاً عاماً للبطاريات وأمر بنقل نابوليون الى احدى فرق المشاة فتبرّم نابوليون واعترض على هذا التعيين فاجابه أوبري « أنت لا تزال شاباً فيجب ان يتقدمك المسنون » فقال له نابوليون « ان الشاب يسنّ عاجلا في ساحة القتال » . ولكن أوبري أصرّ على رأيه العتيق فابى نابوليون أن ينتقل الى المشاة وأصبح في موقف حرج ، ولكن بعض ذوي الشأن الذين عرفهم في طولون توسطوا له عند ذلك الوزير ، وبعد الجهد الشديد استنزلوا له أمراً بالبقاء في العاصمة على سبيل « الاجازة » ، الا أنه

كان محروماً من مرتبه . أما السبب الذي حمل نابوليون على رفض الانتقال الى صفوف المشاة فهو أن ضباط البطاريات كانوا ينظرون بعين الاستخفاف الى ضباط المشاة فعدّ نابوليون نقله حطاً من قدره كما قال مارمون في مذكراته . وكتب نابوليون نفسه الى أحد أصدقائه يقول « أرادوا أن يعينوني جنرالا للمشاة في جيش فنديه فلم أقبل لان كثيراً من الضباط يمكنهم أن يقودوا المشاة ويكونوا فيها أبرع مني ، أما البطاريات فقليل أولئك الذين ينجحون في قيادتها »

فاستنتج بعض المفكرين أن مطامع نابوليون لم تكن عظيمة وأحلامه لم تكن كبيرة في ذاك الوقت لان جنرال البطاريات اذا كان محترماً فهو لا يجد أمامه مجالا لاشباع المطامع العظيمة كقائد المشاة الذي يصدر الاوامر الى قواد البطاريات ويرى أمامه متسعاً للاعمال الباهرة وتحقيق الاماني الجميلة

وفي تلك الاثناء اضطر الجنرال بونابارت أن يعدل عن الكماليات ويكتفي بالضروريات فباع مركبته ، وأخذ يصرف جانباً من وقته في زيادة أهل النفوذ والسلطان ليوضح لهم أمره ثم يصرف الجانب الآخر في زيارة علومه ومعارفه بزيارة المعاهد العلمية والفنية وغيرها وكان بين حين وآخر يذهب مع صديقه جونو الى بعض الحدائق فيتحدثون عن اخوته وأخواته . ولقد عشق جونو بولين بونابارت وطلبها من نابوليون فاجابه بلطف « انك ستكون

صاحب ريع ، ولـكنك لم تحصل عليه حتى الآن ، وأبوك لايزال جيد الصحة ، وكل ما تملـكه رتبة ملازم في الجيش . والخلاصة أيها العزيز انك لا تملك شيئاً وبولين لا تملك شيئاً . فخيرٌ لنا أن ننتظر . . . » . وكانت حالة نابوليون في ذاك الوقت تزداد اشتداداً لحبس راتبه عنه فكان مضطراً مع صديقه جونو الى الاكتفاء بما كان يرد على هذا الصديق من أهله . واذا اتفق ان جونو كان فارغ الجيب ذهب به نابوليون الى منزل السيدة برمون (التي صارت ابنتها دوقة ابرانتيز بعد صعود نابوليون الى ذروة العز والمجد) وكان نابوليون يقول عند وصولها ضاحكاً « ان حمل الذهب لم يصل حتى الآن . . . »

وليس يدلنا على الحالة النفسية التي كان نابوليون عليها في ذاك العهد مثل الكتب التي بعث بها الى أخيه جوزيف . فقد كتب اليه في ٢٣ يونيو من ذاك العام « اني أفعل كل ما في وسعي لاجد وظيفة لاخينا لوسيين »

وكتب في ٢٤ منه « لم أتمكن من الحصول على مركز للويس في فرقة المدفعيات . ولـكني سأرسله الى شالون لان عمره لم يتجاوز السادسة عشرة فلا تمضي سنة حتى يصير ضابطاً »

وكتب في ٢٥ منه « اذا أضمرتَ السفر وكنتَ معتقداً أن غيابك يطول مدة من الزمن فابعث اليّ برسمك . انا عشنا معاً

سنوات عديدة فتمازجت قلوبنا وتقاربت أرواحنا وأنت أعلم بحبي لك . . . »

وكتب اليه في ١٩ يوليو « لم أرَ منك كتاباً حتى الآن مع انك سافرت منذ شهر . . . أظن انك تغتنم فرصة وجودك في جنوى لتأتي بآنيتنا الفضية وأشيائنا النفيسة »

وكتب في ٢٩ منه « تجد ضمن هذا الكتاب الجواز الذي طلبته وسيأتيك غداً كتاب من لجنة الامور الخارجية لتمضيك في أشغالك »

وكتب اليه في أول أغسطس « أن لويس مكبٌّ على الشغل في شالون فأنا مسرور منه . . . اكثر لي من أخبارك وحدثني عن الآنسة أوجيني فانك لا تذكر لي شيئاً عنها ولا عن الاولاد الذين يجب عليك ابرازهم . . انك تنسى نفسك في هذا السبيل . . ألا فاعطنا حفيداً . . . أشرع في الامر . . . »

وكتب اليه في ٢٠ أغسطس « سأسعى في تعيينك قنصلا وفي تعيين فيلنوف (هو حمو جوزيف) مهندساً فيذهب معي الى تركيا »

ثم عاد فكتب اليه في ٢٥ منه « آمل أن تصير قنصلا في مملكة نابولي بعد عقد الصلح معها . . . »

وكتب في ٦ سبتمبر « كتبت الى قرينتك . أما لويس فانا مسرور جداً منه لانه محقق أملي فيه وناهجٌ على ما أريد ، فهو

نشيط زكي جيد الصحة حسن المواهب العقلية طيب القلب محب للتدقيق . وأنت تعلم أيها الصديق اني لا أعيش الا بالسرور الذي أنزله على قلوب أهلي . . . »

فحسبنا ما تقدم لنعلم أن رب الحرب كان محباً لا آله كثير التفكير في مصالح اخوته وأخواته حتى في أحرج المواقف التي وقع فيها

قال بعض النقّاد ان المطامع الشخصية كانت تملأ قلب نابوليون في ذاك الوقت . ولكن مذكرات صديقه بوريين ومذكرات مارمون لا تقوم دليلاً على صحة هذا القول . واذا نظرنا الى الكتب التي بعث بها الى أخيه في تلك الايام أبصرنا في خلال سطورها حقيقة ما كان يشعر به . فقد كتب اليه « أنا قائد لواء في مشاة جيش الغرب . على اني مريضٌ ومضطرٌ الى طلب الراحة مدة شهرين أو ثلاثة ، وسأرى ما يحسن فعله بعد الشفاء »

« الدستور يتلى اليوم ، والناس يرجون منه السعادة والراحة . وسأرسل صورته اليك بعد أن يطبع ويمكنني الحصول عليه »

ثم قال عبارة تدل على حزنه وانقباض صدره وهي « ان الحياة حلمٌ يمر على جناح السرعة » . وبعد أيام قليلة بعث بكتاب آخر لم يتكلم فيه عن نفسه . وهاك فحواه :

« في كل يوم يصدر أمر بالموافقة على بعض مواد الدستور ،

ولا تزال الراحة وطيدة ، على ان الخبز لا يزال مفقوداً والجو يبدو رطباً بارداً فيؤخر الموسم . ومع ذلك كله فان الفخفخة واللهو والفنون المستطرفة عادت على منوال مدهش ، فمثلت أمس رواية فيدر في الاوبرا وخص دخلها باحدى الممثلات فاقبل الجمهور عليها اقبالا كبيراً مع أن الاسعار زادت ثلاثة أضعاف . وحيثما تذهب تجد المركبات وأهل اللباقة وترى النساء رائحات غاديات الى المسارح والمتنزهات والمكتبات ، واذا دخلت مكتب العالم نفسه وجدت فيه السيدات البارعات في الجمال . ان النساء في هذا البلد دون سائر المعمور لجديرات بأن يدرن دفة السفينة ، والرجال مجانين بهنّ لا يفكرون الا فيهنْ ولا يعيشون الا بهنّ ولاجلهن ... أما جونو (صديقه) فيعيش هنا كالشيطان وينفق من مال أبيه كل ما يقدر على ابتزازه . وأما مارمون الذي صحبني من مرسيليا فيقيم الآن في مركزه بمدينة مايانس

« كل شيء هنا على ما يرام ، والهياج محصور في الجهات الغربية دون سواها . والحوادث التي قام بها جماعة من الشبان هنا لا تخرج عن أعمال الصبية . والمعروف أن جانباً من أعضاء « لجنة الخلاص العام » سيجدد في الخامس عشر من هذا الشهر فعسى أن يكون الاختيار حسناً »

ومما يلاحظ هنا أن تجديد هؤلاء الاعضاء كان يخلص

نابوليون من أوبري وزير الحربيــة الذي أظهر له منتهى العدوان كما تقدم

وكتب في جواب « ان حالتي حسنة ، وكل ما يعوزني هو حضور احدى المعارك لان الواجب على الرجل الحربي أن ينتزع من عدوه رايات النصر أو يموت على مهد المجد

« ان باريس هي هي . فكل الافكار منصرفة الى المسارح والمراقص والمتنزهات والاشياء النفيسة الجميلة

« . . . أما أنا فلا أتشبث بالحياة ولا أرمقها بعين الارتياح . وسينتهي بي الامر الى حد أن أصرف النظر عن أية مركبة تمر . . . »

وقال في كتاب آخر « أنا ملحق اليوم بمكتب الطوبوغرافيا (رسم الارض) المختص بادارة الجيش في « لجنة الخلاص العام » ولو اني أشاء السفر الى تركيا برتبة جنرال لتنظيم مدفعيات السلطان من قبل الحكومة الفرنسوية لتمكنت من الحصول على مرتب وافر ولقب أعتز به . . . »

* * *

رأينا أن قلب نابوليون كان يخفق احياناً للنساء الجميلات كما يقع لكل شاب في ربيع الحياة ثم رأيناه مسترسلا الى الحزن والاسى . وربما كان ضغط الحوادث والمصاعب على نفسه مولداً عنده ضرباً من اليأس . وكان نابوليون كما قال بوريين في مذكراته يميل الى

الزواج ويغبط أخاه جوزيف الذي تزوج الآنسة كلاري ابنة تاجر شهير ويفكر في الاقتران بالآنسة دزيريه كلاري أخت زوجة أخيه . على أنه لم يكن واثقاً بأنها تحبه كما كان يحبها بدليل ما كتبه الى أخيه وهو « ان دزيريه طلبت رسمي وسأرسله اليها ان كانت لا تزال راغبة فيه ، والا فابقه عندك »

وكتب الى أخيه يوم كانت دزيريه معه في جنوى « ان دزيريه لا تكتب اليّ منذ سفرها الى جنوى » ثم كتب اليه ليعلم أخبارها من غيرها أظن انك اجتنبت الكلام عن دزيريه عمداً ، فأنا لا أدري هل هي في قيد الحياة أم لا ؟ . . . » . وبعد خمسة أيام أمل أن يسافر الى مدينة نيس فكتب الى أخيه يقول « اذا سافرت الى نيس فاني أراك وأرى دزيريه أيضاً . . . » . وفي التاسع من أغسطس كتب الى أخيه (بعد أن جاءه كتاب من دزيريه) فاظهر رغبته الشديدة في الاقتران بها ثم توالت رسائله الى أخيه في هذا الموضوع ، ولكن قلب دزيريه (التي اقترنت أخيراً بير نادوت ووضعت على رأسها تاج أسوج بدلا من تاج فرنسا) لم تكن تشاطر نابوليون ذاك الحب

وهنا يجمل بنا أن نشير الى رأي بسطه بعض المؤرخين المحققين ، وهو أن نابوليون لم يكن ينوي أو يؤمل أن يقوم بالمهمة العظمى ويعمل عمله التاريخي الكبير حين أراد الاقتران بتلك الفتاة ، لانه لو كان يضمر شيئاً مثل ذاك العمل العظيم لاجّل

اقترانه الى فرصة أخرى . والواقع ان نابوليون كان في ذاك الوقت حزين النفس ضعيف الجسم يطوف في شوارع باريس بقدم متزعزعة وهمة فاترة ، ويضع على هامته برنيطة واسعة تنزل الى عينيه ،ويلبس ذاك « الردنجوت » الرمادي الشهير ويرسل يدين ضئيلتين طويلتين ويأبى ان يشتري قفازاً لانه « يقتضي نفقة زائدة لا حاجة اليها » ويحتذي حذاء ثقيلا متشبعاً من الغبار . ولولا نظرته وابتسامته لما كان في مظاهره شيء مستحب . وكان يفكر على الدوام في مورد رزق مخافة ان يدهمه أمر العزل في ساعة لا يتوقعها

قالت السيدة بوريين « انه على أثر رجوعنا من المانيا سنة ١٧٩٥ وجدنا نابوليون في « القصر الملكي » فتقدم وعانق بوريين كما يعانق رفيقاً وصديقاً محبوباً يتوق الى رؤيته ويسر بقربه . ثم ذهبنا الى « المسرح الفرنسوي » فحضرنا رواية « الاصم أو الفندق المملوء » فكان جميع الحاضرين يقهقهون ويبتهجون ماعدا نابوليون فانه كان صامتاً واجماً فأثر منظره في نفسي تأثيراً كبيراً . ان فكر نابوليون كان سارحاً مشغولا بامور أخرى وقلبه بات خائفاً ان يأتيه خبر يقضي على أمله . وكان من جملة الاشغال التي فكر في اتخاذها مورداً للرزق اذا جاءه أمر العزل تجارة تصدير الكتب الى الخارج وقد بدأ فعلاً بارسال صندوق مملوء من الكتب الى مدينة بال فكان نصيبه الخسارة . وبعد هذا الفشل عاد الى مشروعه القديم أي السفر

الى تركيا لتعليم فرقة المدفعية هناك »

* * *

رأينا ان نابوليون لم يكن يلاقي من كل مسعى الا خيبة الامل، وأشد ما فت في عضده وأدمى قلبه ان اضطهاد وزير الحربية أوبري اودى بثمرة جده وخدمته في ايطاليا وغيرها ، وان اصدقاءه أو حماته — كما يقول — مثل باراس وفيرون لم يقوموا بكل ما رجاه منهم . وزد على كل ما تقدم ان الفتاة دزيريه لم تشاطره الحب ولم ترغب فيه زوجاً

وانه لعلى تلك الحال اذا بنور الفرج يبدو له من حيث لا يؤمل ولا يرجو . ذلك ان المسيو بونتيكولان العضو في « لجنة الخلاص العام » عين في اللجنة الحربية ونيطت به ادارة الاعمال العسكرية على ان الفوضى كانت تضرب أطنابها في ديوان الحربية حتى انهم فقدوا خطة حرب البيرنيه كما قال سيجور وبعد البحث الطويل وجدوها في قمطر مستخدم صغير . ثم اتفق ذات يوم ان المسيو بونتيكولان حدث المسيو بواسي دانجلاس عما رآه من الخلل والعلل فقال له المسيو بواسي « اني لقيت أمس جنرالا معتزلا يتكلم عن معرفة وعلم في أمر الجيش الفرنسوي الذي حارب في ايطاليا . وهو يستطيع ان يقدم لك نصائح نافعة » فطلب اليه المسيو بونتيكولان ان يرسل اليه هذا الجنرال . فابلغ المسيو بواسي طلبه الى نابوليون

وبينما كان الموسيو بونتيكولان جالساً الى مكتبه في الطبقة السادسة (حتى يخلص من كثرة الرجاء والالتماس) دخل عليه انسان نحيل ضئيل ممتقع اللون متقوس الظهر — كما قال مونتيكولان نفسه — فدهش لرؤية هذا المخلوق الذي وضعه الموسيو بواسي تحت حمايته . على انه ما تجاذب معه حديث الحربّ الايطالية التي كانت تهمه حتى رأى ان افكاره لم تكن مريضة مثل جسمه ورغب اليه ان يكتب كل ما ذكره في حضرته ثم يعود اليه

على ان نابوليون ادرك من محادثته للموسيو بونتيكولان ان هذا الوزير الذي فوضت اليه أمور الحرب كان يجهل الامور الحربية ، واعتقد ان المذكرة التي طلبها منه ستطرح كغيرها في محفظة بعض المستخدمين ، فابى أن يرجع الى بونتيكولان

وبعد أيام قليلة لقي بونتيكولان الموسيو بواسي فاعرب له عن تعجبه وقال « اني رأيت رجلك ويظهر انه مجنون » فقال له « لقد كان يؤمل ان تدعوه للشغل معك » . فقال بونتيكولان « لا بأس ، فليعد غداً »

فقابل الموسيو بواسي نابوليون ونصح له ملحاً بان يكتب مذكرة عن جيش ايطاليا اجابة لطلب بونتيكولان فكتب بضع صفحات أودعها صفوة آرائه ، ثم حملها الى وزارة الحربية وعاد بدون أن يقابل بونتيكولان . فلما طالع هذا الوزير مذكرة نابوليون دهش من كفاءة واضعها وسعة معارفه الحربية وأرسل يطلبه من غرفة

الانتظار لظنه ان نابوليون كان منتظراً أوامره فلم يجد الرسول أحداً ولكن نابوليون عاد في اليوم التالي ليرى تأثير المذكرة فاستقبله الموسيو بونتيكولان باسما وقل له « أتريد ان تشتغل معي ؟ » قال «مع السرور والارتياح ... » ثم جلس الى أحد المكاتب في الديوان وأخذ يقوم لبونتيكولان بالخدمة التي سجلها التاريخ فاعجب هذا الوزير بها وسأل نابوليون « عما يريد » فطلب نابوليون أولاً ان يعود الى فرقة المدفعية فذهب بونتيكولان الى الموسيو ليتورنور الذي كان موكلا بامر الترقية فعرض عليه رغبة نابوليون وهو معتقد انه يمكن تعيين شاب مثل نابوليون جنرالا ما دام يمكن تعيين شاب مثله وزيراً . ولكن ليتورنور كان لسوء الطالع قصير النظر فاجاب الموسيو بونتيكولان « انه لا يمكن قبول هذا المطمع من نابوليون لان رفاقه القدماء في صفوف الفرق العلمية (يريد المدفعية) ما زالوا في رتبة كبتن »

فانظر كيف عاند الحظ نابوليون في أوائل عهده . فانه امتاز بدرايته وشجاعته أمام العدو ، ونظم وزارة الحربية بعد ان كان الخلل ضارباً قبابه فيها ، ثم وضع الخطة الحربية للجيش الذي احتل فادو . ومع هذا كله أبى لتورنور ان يرجعه الى صفوف المدفعيات . والمظنون ان السبب في تلك المعاكسة هو ان لتورنور نفسه لم يكن له الا رتبة كبتن في الجيش فلم يستطع ان يرى نابوليون متفوقاً عليه بين حماة الوطن وان كان هو وزيراً آمراً

على ان نابوليون لم يضمر له شراً ولم يحمل شيئاً من الحقد عليه ، لان النفوس الكبيرة تتعالى عن الضغينة وتعفو عند المقدرة وهذا ما وقع لنابوليون فانه لما ارتقى الى ذرى المعالي عين لتورنور مستشاراً في وزارة المالية ثم دعا المسيو بونتيكولان وقال له « أنت منذ اليوم عضو في مجلس الشيوخ » . فاجابه بونتيكولان «لايمكنني قبول النعمة التي تنعمون بها لان القانون يقضي أن يكون عمر العضو أربعين سنة وانا ليس لي من العمر الا ستة وثلاثون عاماً » . فقال له نابوليون « انك تعين مديراً لبروكسل أو لمدينة أخرى الى ان تبلغ الاربعين فتأتي وتستلم منصبك ... انما أود ان اظهر لك اني لم أنس ما صنعته لي ... »

واتفق بعد سنوات ان المسيو بونتيكولان ضمن صديق مديناً بثلاث مئة الف فرنك وان هـذا الصديق عجز عن الدفع فشدد الدائن على المسيو بونتيكولان في وجوب الوفاء قياماً بالعهد . وبينما كان الوزير القديم في أحرج المواقف علم نابوليون بامره فدعاه الى قصر التويلري وعنفه على البقاء نحو ثلاثة اشهر في ذاك المأزق دون أن يخبره بالامر ، ثم قال له « اذهب الى الخزينة الخاصة واقبض المبلغ . . . »

(ولما كان الشيء بالشيء يذكر وجب علينا ان نذكر للحقيقة ان بونتيكولان كان اول الذين عارضوا في بقاء الامبراطورية البونابارتية في الجلسة التي عقدها مجلس الامة الفرنسوية في ٢٢ يونيو

سنة ١٨١٥ اي سنة الشؤم على نابوليون)

* * *

ولما ابى المسيو لتورنوران يحقق امل الجنرال نابوليون بنقله الى صفوف المدفعيات استقال نابوليون من وظيفته في وزارة الحربية وعاد بمساعدة بونتيكولان يتذرع بالذرائع اللازمة لتحقيق امنيته القديمة نعني السفر الى تركيا . وجاءت ساعة كان فيها الامر بسفره مكتوباً معداً ، والامل بنجاحه وطيداً ، وما بقي عليه الا انتظار نتيجة الاستعلام الذي قامت به « لجنة الخلاص العام » في شأن الضباط الذين اختارهم لتأليف بعثته . على أن الخلل كان متسرباً الى فروع تلك اللجنة ، فبينما كان نابوليون ينتظر امر السفر ، صدر الامر بعزله « لانه رفض الوظيفة التي عينت له في جيش الغرب » . والحقيقة أن نابوليون عزل خطأً وظلماً لانه أقيل على وجه قانوني من الوظيفة التي عينت له اولاً في جيش الغرب ثم عين في وزارة الحربية وقام للحكومة بخدمات جليلة . ولكن سوء الطالع كان ملازماً له والدهر الداهر واقفاً في صف خصومه

ولما داهمه أمر العزل فتّ في عضده ورأى أن خير وسيلة الى الغاء هذا الامر الذي حرمه من رتبته العسكرية هو أن يذهب الى أصدقائه وحماته ويوضح لهم ما جرى له لعلهم يكشفون عنه تلك الظلامة فنجح اولئك الاصدقاء في مساعدته وكتب نابوليون في ٢٦ سبتمبر أى بعد أمر العزل باحدى عشر يوماً الى اخيه جوزيف

يقول « ان مسألة سفري هي اليوم أقرب الى التحقيق منها في كل آن »

الفصل الثاني

فتش عن المرأة . . .

وفي تلك الاثناء صدر أمر « لجنة الخلاص العام » بان يعطى ضباط الجيش العامل قطعة من الجوخ كافية لصنع ردنجوت وصدرية و بنطلون فذهب نابوليون الى أمين مخزن الجيش وطلب قطعة الجوخ فرفض ان يعطيه اياها بحجة ان نابوليون لم يكن في الجيش العامل . فلجأ نابوليون الى مدام تاليان فاعطته كتاباً الى المسيو ليفوف الموكل بذلك الامر في الفرقة السابعة عشرة فتكرم عليه بقطعة الجوخ . وما كان سعي نابوليون في هذا السبيل ناشئاً عن رغبته في الهندام والاتقان والترف بل كان ناجماً عن سبب آخر ذكره البارون فين ، هو ان ملابسه خاضت معه العجاج ولقيت النار مراراً فاخلقت جدتها

وكانت السيدة تاليان معشوقة المسيو باراس صاحب الكلمة والحول فصار كل امرىء يطمح الى تعضيد من باراس أو يلتمس منه عفواً مضطراً في غالب الاحيان الى زيارة مدام تاليان ، حتى أصبحت ردهتها ملتقى المطامع والمطامح من نساء ورجال.

وكان نابوليون من جملة الذين يختلفون الى منزلها فيرى فيه الزوار والزائرات يؤلفون لجاناً مسترسلة الى أحاديث فيها من كل شجرة ثمرة ومن كل ينبوع قطرة ، وكثيراً ما كانوا ينسون لدى تلك السيدة الجميلة خطر الحال في فرنسا . على ان نابوليون كان أقلهم كلاماً وأقلهم مظهراً . واذا تكلم فلا تكلف ولا تصلف

وحدث يوماً أن نابوليون كان منشرح الصدر حديد الفكر فأخذ يد مدام تاليان يقرأ فيها ويكثر من الفكاهات والسخافات ليزيد سرور الحضور فبدا للعين منظر جدير بان يصوره المصورون ويحفظوه على ممر القرون . فمن جهة سيدة بارعة الجمال كثيرة الدلال تكتنفها السراء وتشملها النعماء وتنصرف اليها الانظار والافكار . ومن جهة مخلوق ضئيل نحيل اصفر اللون معروق لحم الوجه يلبس ثوبا عسكرياً لا يملأ العين ، ويرسل شعراً طويلا عند السالفين

وهناك سرب من النساء الجميلات جالسات ينظرن اليها ويضحكن من منظرهما وبينهن سيدة من ذوات الجمال الضارب الى السمرة الخفيفة مسترسلة بلا تكلف الى ذاك المشهد المضحك . اسمها جوزفين أرملة بومارشيه التي صارت بعد خمسة أشهر قرينة ذاك الجنرال المضحك ثم صارت بعد ثلاث سنوات امبراطورة الفرنسويين وتلقت اكليل الزواج من يد البابا . فهل كان نابوليون الذي حاول استطلاع طالع المستقبل للسيدة تاليان ـ هل كان يقرأ

في يده ما أعدته يد الزمان ، وهل قرأ في صفحة المستقبل انه سيصير ملك الملوك وسيد أرباب التيجان ؟

الفصل الثالث

في سبيل المجد

وفي تلك الايام كانت نيران الثورة كامنة تحت رماد السياسه في باريس ، والافكار قلقة مضطربة . وسبب هذا الاضطراب ان كثيرين من الفرنسويين لم يكونوا راضين بالدستور المعروف بدستور السنة الثالثة فاغتنم الملكيون فرصة استيائهم وهبوا لتعضيدهم . وفي ١٢ فندمير (الشهر الاول من سنة الجمهورية التي ألغي حسابها) حدث شغب في باريس فأخرجت حكومة الكونفانسيون الجيش لتفريق المتجمهرين بقيادة الجنرال مينو فلم يفلح في مهمته بل اتفق مع الخوارج اتفاقاً لا يؤيد سطوة الحكومة وترك الثائرين في مواقعهم ، فما طار هذا الخبر الى حكومة الكونفانسيون حتى اهتزت اركانها وامرت بالقبض على الجنرال مينو وبعزل الجنرال ديبريير والجنرال ديبور وغيرهما واخذت تبحث عن قائد آخر صحيح العزيمة وطيد الامانة لان موت الكونفانسيون وحياتها كانا متوقفين على نجاح الثوار وفشلهم . وبعد المفاوضة الطويلة والمد والجزر اتفق رجال الكونفانسيون على تسليم القيادة الى واحد منهم

خوفاً من الخيانة فعينوا باراس قائداً اكبر للجيش

على ان باراس كان يحب الترف والنعيم ، وهذا لا يتفق مع الواجب العظيم الذي نيط به . فارتبكت افكاره لدى ذاك الخلل الذي اصاب الجيش نفسه ، وأوقف صديقه الموسيو كارنو على امره فنصح له الموسيو كارنو بأن يطلب مساعدة أحد القواد وذكر له ثلاثة ومنهم الجنرال بونابرت ثم عرضت اسماء قواد آخرين فقال باراس « انا نحتاج الى جنرال عالم بامور المدفعية » فألح الموسيو فريرون في وجوب اختيار نابوليون ثم ذهب وأتى به فقال له باراس « أتريد ان تكون قائداً ثانياً لجيش الكونفانسيون ؟ » فسكت نابوليون فقال له باراس « اعطيك ثلاث دقائق فقط للتفكير »

ففي تلك الدقائق الثلاث تقرر حظ نابوليون وفرنسا وأوربا ، ولما فكر نابوليون في واجبه بدا له ان واجب كل محب لفرنسا كان يقضي باسقاط حكومة الكونفانسيون التي نشرت الهول والرعب وضمت اليها كثيرين من أهل الجهل والخلل ولكنه نظر من جهة اخرى فتصور خمسين الف نمسوي على أبواب ستراسبورغ واربعين بارجة انكليزية أمام برست فقال في نفسه ان صد العدو الخارجي هو رأس الواجبات واختار ما جعله كل فرنسوي أساس وطنيته وما رأيناه في الحرب العظيمة التي نشبت في سنة ١٩١٤ وهو « ان تعضيد كل حكومة واجب على كل وطني في وقت الخطر الخارجي

على ان نابوليون لم يقبل ذلك المركز الصعب الا بشرط وهو

« ان لا يغمد الحسام قبل اعادة النظام » فقبل باراس شرطه . وكان هذا الاتفاق نحو الساعة الواحدة بعد نصف الليل أي ليل ١٣ فندميير وما جاء مساء ١٤ منه حتى تغلب نابوليون على الثوار وفي اليوم ذاته صدر الامر بترقيته الى رتبة قائد فرقة (فريق) ولما اجتمع أعضاء الكونفانسيون قال لهم فريرون الذي قدمه لباراس « لا تنسوا ان الجنرال نابوليون الذي عين في ليل ١٢ — ١٣ لم يكن لديه الاصباح ذاك اليوم لاتخاذ الوسائل التي رأيتم نتائجها » ثم وقف باراس بعد فريرون فذكر الخدمة الجليلة التي أداها نابوليون» وطلب تثبيته في منصب قائد ثان للجيش الداخلي

ثم انتقل اسم نابوليون من الكونفانسيون الى الجرائد وتداولته الالسنة بعد الاقلام . وفي ٢٦ اكتوبر من تلك السنة عين قائداً عاماً للجيش الداخلي واقام في المعسكر العام الذي كان وقتئذ في شارع الكبوشيين . وعين الجنرال دوفينيو رئيساً لاركان حربه ثم ضم نابوليون اليه جونو ومارمون وغيرهما ممن كان لهم شأن وسمعة طيبة في حروبه

الفصل الرابع

اليسر بعد العسر

وانتقل نابوليون من العسر الى اليسر بعد انتقاله الى المعسكر العام واصبح الباريسيون يشيرون اليه بالبنان ولم يعد الجنرال بونابارت يحتذي ذاك الحذاء الملطخ بالوحل ويلبس الملابس العتيقة ويسكن في منزل عليه مسحة المسكنة . بل صار يعنى بنفسه ولا يخرج الا في مركبة فخمة

ولعل القارىء يسأل هنا كيف كان تأثير النعمة التي جاءته بتلك السرعة وليس له من العمر اكثر من ست وعشرين سنة ؟ هل تغيرت عواطفه وتبدلت أخلاقه أو بقي كما رأيناه في السنوات المنصرمة ؟ ان الاعمال التي قام بها والكتب التي أرسلها تتضمن خير جواب على هذا السؤال . فقد كان في مقدمة اعماله بعد وصوله الى شرفة المجد انه توسط للجنرال مينو (سلفه في المنصب) فبرأه مما اتهمته به حكومة الكونفاسيون وفي ١٣ — ١٤ فندميير (الموافق ٥ — ٦ اكتوبر) كتب الى أخيه جوزيف يقول :

« انتهى كل شيء ، وكان أول ما فكرت فيه ارسال اخباري اليك ، وقد أمرت حكومة الكونفاسيون بنزع السلاح من قسم لابيلسينيه وعين باراس قائداً عاماً وعينني قائداً ثانياً فأعددنا جنودنا

ثم قهرنا الاعداء الذين هاجمونا عند التويلاري ونزعنا السلاح من جميع الايدي ووطدنا الراحة ثم رجعت كما تعودت أي دون ان اصاب بأقل جرح

« الطالع السعيد لي والسلام الجزيل لاوجيني وجولي »

ثم كتب اليه في ٢٦ اكتوبر « عرفت من الجرائد كل ما يتعلق بي فقد عينت قائداً ثانياً لجيش الداخلية وعين باراس قائداً أول ثم تغلبنا على الخصوم وبات كل شيء نسياً منسياً

« أودعك وانا لا أنسى شيئاً مما ينفعك ويساعدك على نيل السعادة »

وكتب اليه في ١٨ اكتوبر « ان أحد مواطنينا المدعو بيلون — وأنت تعرفه كما يؤكدون لي — طلب بوليت، ولكنه لا يملك ثروة ، وقد كتبت الى أمي ورغبت اليها ان لا تفكر في امره وانا استزيد اليوم من الاستفهام والاستعلام »

وكتب اليه في أول نوفمبر « صار لوسيين قومسيراً في جيش الرين . قبل عني امرأتك ودزيريه »

وكتب اليه في ٩ منه « ان العيلة لا تحتاج الى شيء فقد ارسلت اليها نقوداً وأوراقاً مالية الخ . »

وكتب اليه في ١٧ منه « يحتمل ان أطلب العيلة الى هنا . زدني من أخبارك واخبار قرينتك وأوجيني

« واني لا أشعر بوحشة الا من بعدك فاذا لم تكن امرأتك

حبلى فتعال بلا ابطاء الى باريس لتقضي فيها حيناً من الزمن »

وكتب اليه في ٣١ دسمبر « لا يأخذنك شيء من القلق على العيلة فانها حاصلة على كل شيء

« وصل جيروم الى باريس وسأدخله في احدى المدارس الموافقة له . وأنت ستصير قنصلا في وقت قريب فلا يحق لك أن تقلق ، واذا تولاك الملل في جنوى فتعال الى باريس حيث تجد مائدة ومركبة رهن اشارتك . واذا كنت لا تود ان تكون قنصلا امكنك ان تختار هنا الوظيفة التي توافقك »

وكتب اليه في ١١ يناير « ان كثرة أشغالي واهمية الامور التي تشغلني تمنعني من مواصلة الكتابة اليك . انا سعيد ومسرور . وأما العيلة فقد أرسلت اليها ما قيمته ٥٠ الى ٦٠ الف فرنك من نقود وأوراق وغيرها فلا يشغل امرها فكرك . وأما اخونا لويس فهو يلازمني وانا مسرور جداً منه . ومارمون وجونو يلازماني ايضاً وجيروم يتعلم في المدرسة اللغة اللاتينية والحساب والرسم والموسيقى الخ . وانا لا أرى اقل مانع لزواج الشقيقة اذا كان الطالب غنياً »

فانت ترى ان نابوليون هو هو مع أهله ، لم يغير اليسر ما ظهر من اخلاقه وعواطفه أيام العسر

الفصل الخامس

هيام نابوليون بجوزفين

على انه اذا كان نابوليون لم يغير سلوكه مع أهله بعد ذاك الفوز الباهر فان منصبه كان يضطره الى الظهور في مظهر الابهة في المجالس، فكنت تراه يدخل الردهات دخول الظافر المعتز لا دخول الجنرال الوضيع المعوز كما رأيناه . وكان بحكم منصبه يقابل كثيراً اعضاء الحكومة ، فيكرمون وفادته ويلقبونه تحبباً « بجنرال النا الصغير »

ولم ينقطع الجنرال نابوليون عن زيارة « صالون » السيدة تاليان وهناك كان يجد نخبة من السيدات والرجال . وهناك عرف جوزفين دي بومارشيه وعشقها أشد عشق . قال مارمون « ان هذا أول عشق داخل قلب نابوليون على ما يظهر ، وكان عمر نابوليون لا يزيد حينئذ عن سبع وعشرين سنة وعمر جوزفين يبلغ اثنتين وثلاثين ، على ان فقدها لنضارة الشباب لم يحل دون تملكها لقلبه» والظاهر من أقوال اخرى ان مارمون جار على جوزفين في حكمه لانها لم تكن محرومة من نضارة الشباب بالقدر الذي يدل عليه كلام مارمون . واذا كان جمالها لا يضارع جمال مدام تاليان فانه كان كافياً لاجتذاب قلب لم يعرف الغرام كقلب نابوليون

ولقد وصف المؤرخون جوزفين بانها كانت متوسطة القامة

متناسبة الاعضاء لينة المعاطف قليلة التكلف في حركاتها وسكناتها حنطية اللون ذات عينين شديدتي الزرقة وحاجبين مرتفعين بعض الارتفاع ، وكانت ملابسها على الغالب من الحرير الهندي الرقيق

وزعم بعض اولئك المؤرخين الذين اشتهروا بالتحامل على اسد اوسترلتز انه كان يرمي في حبه لجوزفين الى غرض واحد هو الحصول على منصب القيادة العامة لجيش ايطاليا . ولكن الآخرين يؤكدون انه احبها حباً اكيداً شديداً ، وان فكرة الزواج كانت ملازمة له منذ سنة ١٧٩٤ بدليل قوله عن اخيه جوزيف بعد زواجه « ان جوزيف لسعيد » وبدليل سعيه للاقتران بدزيريه كلاري اخت زوجته . وبدليل رغبته في الاقتران بجوزفين التي كان لها ولدان

فليس بعجيب بعد ان رفضته دزيريه ان يتزوج أول امرأة يحبها وتمد يدها اليه . وكانت جوزفين دي بومارشيه التي أوقعت على نفسها الشبهات بشدة امتزاجها مع مدام تاليان واسترسالت الى اللهو والصفاء بعد وفاة زوجها تحتاج الى الاعتماد على قرين يرجى له مستقبل جميل . وكل من اطلع على ما كتبته يعلم انها كانت أشد رغبة من نبوليون في الاقتران به . واليك ما كتبته اليه في ٢٨ اكتوبر سنة ١٧٩٥

« انك انقطعت عن زيارة صديقة تحبك واهملتها اهمالا تاماً فانت مخطىء في عملك لان قلبها متعلق بك

« فتعال غداً لتناول الغداء معي فاني في حاجة الى رؤيتك ومحادثتك فيما يختص بمصلحتك . . .

« اقبلك أيها الصديق . . . »

فاذا نظرنا الى هذا الكتاب بعين الناقد المنصف ظهر لنا منه أمران اولهما ان نابوليون مع حبه لجوزفين لم يكن يوالي الزيارات لها خوفاً من ازعاجها ، والثاني انه لم يكن يستخدمها لتأييد مصلحته الخاصة كما اتهم بل ان جوزفين هي التي كانت تتوسل بجملة وسائل لتستميله اليهـا ومن جملة وسائلها التحدث عن مصلحته ومستقبله

وليس بصحيح أنها كانت رفيقة باراس مع مدام تاليان . فانها لم تكن على رواية المحققين الا صديقة لمدام تاليان عشيقة باراس . ومما لا ريب فيه انها لو كانت كما زعموا لقذفت بها مدام تاليان من مجلسها ولما احتملت منها تلك الخيانة . وكل ما يمكن تصديقه هو ان جوزفين لما صارت خطيبة للجنرال نابوليون التمست توسط مدام تاليان لدى باراس ليساعد على تعيين نابوليون قائداً عاماً لجيش أيطاليا وليس هذا بغريب من خطيبة ترجو تحسين سمعتها واعلاء منزلتها وتأييد مصلحتها بارتقاء خطيبها . ولا سيما ان جوزفين كما ظهر واشتهر بعد حين لم تندفع بعامل الحب الى ذاك الاقتران . واليك ما كتبته الى احدى صديقاتها :

« انك رأيت عندي الجنرال بونابارت . فهذا الجنرال أراد ان يكون أباً لليتيمين اللذين تركهما الـكسندر دي بومارشيه وزوجاً لارملته . ولعلك تسأليني « أأنت تحبينه ؟ » فاقول « كلا» ولـكني لا أرى ما ينفرني منه . . . »

على ان نابوليون نفسه كان يتعالى عن الدسائس ويعتمد على سيفه قبل كل شيء بدليل ما قالته جوزفين نفسها في كتاب وهو « ان باراس اكد لي اني اذا اقترنت بالجنرال نابوليون اناله القيادة العامة لجيش ايطاليا ، فحادثت نابوليون في شأن هذا المنصب الذي ساء رفاقه قبل وصوله اليه فقال لي « أيظنون اني احتاج الى الحماية ؟ انهم اذا حصلوا على حمايتي لهم كانوا من السعداء ، وما دام سيفي معي فاني أرتقي به الى أسمى المناصب . . . »

ولـكن تلك الانفة عند نابوليون لا تنفي ان جوزفين صاحبة السلطان على قلبه كانت تستطيع أن تجبره على التسليم بارادتهـا . والمعروف انها كانت تريد توسط باراس وتسعى اليه في بيت حبيبته . واذا أراد القارىء ان يعرف مبلغ الحب الذي تمكن من قلب نابوليون بعد خطبته جوزفين فليقرأ كتبه اليها . فقد كتب اليها على أثر سهرة « اني استيقظ ولا أرى امامي غيرك . فان صورتك والسهرة المسكرة التي قضيناها أمس لم تبقيا لحواسي شيئاً من الراحة . فما هذا التأثير الغريب الذي احدثته في قلبي يا جوزفين ، يا عزيزة المثال

« اني اذا رأيتك مكدرة الصفاء أو حزينة القلب أو قلقة

الفكر تفطر فؤادي وفقدت الراحة » ثم ختم بقوله « اعطني الف قبلة ، لا بل امنعيها عني فانها تحرق دمي في عروقي ... »

حسبك ما تقدم لتعلم ان نابوليون كان يحب جوزفين حباً حاراً وقد استمر حبه لها زمناً طويلا بعد بلوغه ذروة المجد واحرازه النصر الباهر ، وهـذا يدل دلالة دامغة على خطأ بعض المؤرخين الذين زعموا ان نابوليون انما أحب تلك المرأة متصنعاً ورامياً الى غرض مادي ، في حين انه كان يحبها حباً خالصاً وشديداً الى حد منعه من درس حقيقة الحب الذي تظاهرت به جوزفين ولم يدرك انها اتخذته واسطة لبلوغ غرضها أي الوصول الى مركز في المجتمع ، الا بعد زمن

أما الوقت الذي بدأ فيه نابوليون يتحبب الى جوزفين ويجتمع بها على نية الزواج فهو على ما يظهر شهر نوفمبر سنة ١٧٩٥ ،وكانت جوزفين تقيم حينئذ في شارع الكاية مع عمتها فاني دي بومارشيه التي قال فيهـا أحد الشعراء ما معناه « ان فاني جميلة وشاعرة ولـكن فيها عيبين الاول ان وجهها مصطنع والثاني انهـا لا تنظم شعرها . . . »

على ان نابوليون لم يخطب جوزفين خطبة رسمية الا سنة ١٧٩٦ ولم يكن يكثر من الزيارات لها قبل هذا الميعاد لان الحكومة الفرنسوية (حكومة الديركتوار) فوضت اليه أن يضع خطة الحرب الايطالية فاستغرقت مع أعماله الاخرى معظم وقته. وبعد ان عقدت

الخطبة بينهما انتقلت جوزفين الى منزل نمرة ٦ في شارع شانتيرين بالعاصمة ، وهو المنزل الصغير الجميل الذي اشتراه لها نابوليون بمبلغ ٥٠٤٠٠ فرنك

وكان نابوليون يزور الاحباء والاصدقاء مع خطيبته ، وقيل ان جوزفين اظهرت شيئاً من التردد بعد الخطبة بدليل انها كانت يوماً مع نابوليون مارة أمام منزل مستشارها الموسيو راجيدو أحد موثقي العقود فدخلت منزله وسألت خطيبها ان يبقى خارج غرفة هذا الرجل ولما خلت به استشارته لآخر مرة في مسألة اقترانها بنابوليون فقال لها « ماذا تفعلين ؟ أتقترنين بجنرال لا يملك الا السيف والعباءة العسكرية . . . بجنرال صغير ليس له اسم ولا مستقبل . . . بجنرال هو دون سائر قواد الجمهورية ! انه لخير لك أن تتزوجي أحد المتعهدين بتقديم البضائع والحاجيات من ان تعقدي مثل هذا القران »

وكان نابوليون في تلك الساعة ينصت وراء الباب المفتوح قليلا فسمع حديث الموسيو راجيدو ولكنه كظم غيظه وأضمر استياءه ولم ينبس ببنت شفة . وبعد مضي ثماني سنوات انتقم لنفسه بان دعا راجيدو الى حفلة القران التي أقيمت في قصر التويلري ليرى ذاك « الجنرال الذي ليس له اسم ولا مستقبل »

وكان اقتران نابوليون بجوزفين في ٩ مارس من سنة ١٧٩٦ .
ومما يذكر ان جوزفين نقصت من عمرها يوم كتابة عقد الزواج

اربع سنوات ونابوليون زاد على عمره سنة واحدة مراعاةً لعواطفها ، وكان شاهدا جوزفين باراس وتاليين وشاهدا نابوليون ياورهُ ماروا والمسيو كالميلي احد رجال القضاء . وبعد التوقيع على السجل الرسمي أمام المسيو لكليرك مسجل الاحوال الشخصية في القسم الثاني من العاصمة ، ذهب نابوليون وعروسه الى منزلها في شارع شانتيرين



حفلة زواج نابوليون وجوزفين

حيث ابتدأ شهر العسل رسمياً . اما ولدا جوزفين اوجين وهورتنس فقد أرسلا الى سان جرمين

وقبل زواج نابوليون باثني عشر يوماً صدر الامر بتعيينه قائداً عاماً لجيش ايطاليا فأخذت الالسن اللادغة تقول « ان باراس جعل القيادة العامة مهراً لجوزفين » ونقل بعض المؤرخين هـذا القول الجارح على علاته ، ولـكن الذين رمقوا نابوليون بعين الانصاف

يزون ان باراس مع رغبته في ارضاء حبيبته السيدة تاليان (التي التمست جوزفين توسطها) لم يكن من السهل عليه ان يجعل القيادة العامة في جيش ايطاليا ، تلك القيادة التي كانت المصلحة الوطنية العظمى منوطة بها ، هدية زواج أو ينقلها من يد الى يد على ذلك النمط من الخفة والطيش

وزد على هـذا كله ان باراس مع نفوذه ومقدرته على اغداق نعم كثيرة لم يكن قادراً على التصرف وحده بامر تلك القيادة لان القائد العـام لم يكن يعين الا باتفاق آراء الغالبية في مجلس « الديركتوار » وهو كان مؤلفاً من كارنو وباراس ورفيلبير ليبو وريبل وليتورنور . واذا رجعنا الى مذكرات رفيلبير ليبو الذي اشتهر بتحامله على نابوليون رأيناه يؤكد فيها « ان الديركتوار كان حراً في اختياره لنابوليون فهو لم يتأثر بشيء لا من باراس ولا من أحد آخر . . . »

والواقع ان مجرى الحوادث هو الذي أفضى بالقيادة العامة الى يد نابوليون . وتحرير الامر ان نابوليون وضع خطة حربيـة لا كتساح انحاء البيامون منذ ١٩ يناير من تلك السنة ورفعها الى الحـكومة فأرسلتها الى الجنرال شارير (وكان وقتئذ قائداً عاماً) فما اطلع عليها حتى أعادها الى الحـكومة وقال لها في كتاب « ان الذي وضع هذه الخطة رجل مجنون ، ومن يتصور خطة مثلها يجب عليه أن يأتي لتنفيذها » . بيد ان كارنو احد أعضاء الحـكومة أدرك

سر" الخطة وأيد نابوليون وتمكن من استمالة الغالبية الى رأيه . وفي ١١ مارس من سنة ١٧٩٦ اي بعد الزواج بيومين فقط سافر نابوليون الى معسكر الجيش الايطالي وقلبه يتلفت نحو زوجه المحبوبة . وهنالك كان استهلال الاعمال الحربيـة العجيبة التي استمرت نحواً من عشرين سنة

الفصل السادس

نابوليون بعد الزواج

كان نابوليون يعتقد مثل كل انسان عاقل أن من القواعد الادبية الاساسية في الزواج ان يحب الرجل امرأته وان يفرغ الجهد في تحبيب نفسه اليها كما ان الواجب على المرأة أن تنحو هذا النحو . على ان نابوليون أظهر من الاندفاع والتحمس في حبه لجوزفين ما بلغ به حداً قصياً فكأنما الفقر والضنك اللذان حالا بينه وبين عيشة الشباب في أوائل عهده تركا في صدره قوة احتياطية عظيمة من الحب فتدفقت وطغت ، حتى قال المؤرخون المحققون ان حاجته لأن يكون محباً وحبيباً بلغت به درجة تضاهي ما نطالعه في الحكايات الخرافية ، وكان يسعى الى هذا الغرض من كل طريق فتارة يقسم لها الايمان المغلظة وتارة يصوغ لها عقود الثناء والمدح ، وحيناً يلتمس ويضرع ، وآخر يتذلل ويخضع . ولو عرفت جوزفين كيف تستفيد

من تلك العواطف المتقدة لدام حب نابوليون لهـا وتوثقت عرى الوئام بينهما توثقاً ليس بعده انفصام . ولـكن جوزفين كانت أميل الى الملذات والمسرات العالمية منها الى اقامة بيتها على أسس وطيدة والى التماس الحياة الزوجية الرغيدة . ونحن ذاكرون هنا مقتطفات من الـكتب التي بعث بها الى جوزفين بعد سفره الى معسكر جيش ايطاليا لأنها تدل القارىء على المجرى الذي جرت فيه عواطف نابوليون بعد زواجه . قال لهـا في كتاب بعث به في ١٤ مارس سنة ١٧٩٦ أي بعد سفره بيومين :

« أيتها الصديقة المعبودة ، ان كل دقيقة تمر بي وأنا بعيد عنك تضعف مقدرتي على احتمال هـذا البعد . فأنت على الدوام نصب عين الفكر ، ومخيلتي تفنى جهداً ووصباً لكي تتصور ما تصنعين . فاذا تصورتك حزينة تفطر فؤادي وتفاقم حزني ، واذا تصورتك طلقة المحيا لعوباً مع الاصدقاء والصديقات ملت الى تعنيفك لانك نسيت فراقنا الاليم منذ ثلاثة أيام . . . اكتبي واسهبي لي أيتها الصديقة وتقبلي الف قبلة وقبلة ممن يحبك أصدق حب »

وقال مارمون « ان الجنرال بونابرت مع اشتغاله بالعلاء والعظمة وبالمصالح الخطيرة التي فُوضت حمايتها اليه ومع اهتمامه بمستقبله ، لم يكن ينسى امرأته بل كان يفكر فيها على الدوام ويتمنى قربها وينتظر قدومها بفروغ صبر . وكثيراً ما كان يحدثني عنها وعن حبه لها ، ويتألم من تأخرها عن السفر اليه ، ويظهر شيئاً من الغيرة والتطير »

وحدث يوماً ان المرآة الملحقة برسم صغير لجوزفين انكسرت في جيبه قضاء وقدراً فاصفر لون نابوليون اصفراراً مخيفاً وقال لمارمون « ان امرأتي على أحد أمرين : فاما أن تكون مريضة واما أن تكون خائنة » . . ولطالما تضرّع نابوليون الى جوزفين بعد أن أشرق طالع السعد عليه وأخذ يحرز النصر تلو النصر أن تحضر وتخمد لهيب شوقه ، ولـكن جوزفين كانت تود قبل كل شيء أن تبقى حرة في باريس لتتمتع برؤية التحمس العظيم الذي كانت تحدثه انتصارات زوجها في الجمهور الباريسي وتجني أزهار المديح من جميع الطبقات وتطلع مرتفعة الرأس في المجالس والمحافل وتبسم ابتسامات كلها أنفة وعزة للذين كانوا يهتفون لها ويلقبونها « بسيدة النصر » فهي لم تكن تحب زوجها بل كانت تحب منصبه وشهرته وتتخذهما سلماً للصعود الى حيث كانت تريد في المجتمع . وكانت اذا رأت نابوليون يلح في طلبها والتضرع اليها قالت بدلال « ان نابوليون لمغرب مضحك . . . » . وان أجابته فان جوابها لا يتجاوز ثلاثة أسطر . وكانت تدعي تارة انهـا مريضة وطوراً ان دلائل الحبل بادية عليها فلا قِبَـل لها بالسفر

على ان هذا العذر كان يزيد شوقه وقلقه . وفي ١٥ يونيو كتب اليها كتاباً قال فيه « صارت حياتي كلها أحلاماً مخيفة ، وصرت كأني لا أحيي ، وفقدت ما هو أغلى من الحياة والسعادة والراحة وكاد اليأس يتولاني . . . اكتبي لي عشر صفحات فان هـذا هو

الامر الوحيد الذي يعزيني بعض التعزية ... قلت انك مريضة وانك تحبينني وانني احزنتك وانك حامل . فانا أذنبت اليك ذنوباً عديدة لا أدري كيف اكفر عنها فاغتفريها لي واعذريني أيتها الصديقة لان حبك ذهب بعقلي فلن أرى اليه سبيلاً

« ان ما بي من الداء لا يقبل الشفاء ، وما عندي من الافكار السوداء بلغ حداً صرت اكتفي معه بان أراك فاضمك ساعتين الى قلبي ثم نموت معاً ... ألا خبريني من يعتني بك ؟ أظنك دعوت هورتنس اليك ... ان حبي لهذه الفتاة اللطيفة زاد الف ضعف منذ عرفت انها تقدر على انزال شيء من السلوان على قلبك . أما انا فلا عزاء ولا راحة ولا أمل لي قبل أن يرد علي كتاب طويل منك اعرف منه ما هو مرضك . فاذا كان منه خطر عليك فاني اسرع الى السفر نحوك ... ايتها الصديقة قولي لي انك مقتنعة كل الاقتناع بان حبي لك يتجاوز ما يستطيع الفكر ان يتصوره . وباني لا افكر في امرأة أخرى غيرك . وبان كل النساء هن في نظري عاطلات من حلى اللطف والظرف والجمال والذكاء . وبانك أنت وحدك تعجبيني وتروقي ناظري . وبان قواي وساعداي ومداركي كلها لك وروحي مقيمة في جسمانك فاذا مت مت انا معك . . . وأنت تعلمين اني لا أستطيع ان أرى لك حبيباً » ثم ختم بقوله « أيتها الصديقة المعبودة انا مريض لمرضك والحمى تتسعر في جسمي فلا تدعي البريد يتأخر

اكثر من ست ساعات بل اعيديه مسرعاً بجواب من سيدني ومولاتي »

فماذا كان جواب جوزفين على هذا الكتاب الذي تكاد حروفه تلتهب من نار شوقه اليها ؟ انها قالت عند وصوله « ان نابوليون لمغرب مضحك » . أجل ان ذاك الزوج الذي خدعته الايمان التي اقسمتها تلك المرأة ايام الخطبة . وذاك الجنرال الذي بز الابطال ، وأخذت فتيات الطليان تتزلف اليه في كل مكان فلم يعجبه غير امرأته من النساء الحسان . وذلك القائد الذي كان يصدر أوامره الى أرباب التيجان وصاحب الفاتيكان . ثم يقف أمام تلك المرأة كخادم في حضرة سلطان ـ ان مثل هذا الانسان لغريب في افكاره مضحك في أطواره

وقيل ـ وما أكثر ما قيل عن نابوليون ـ ان ذاك الانشاء المتلىء حرارةً ليس بالدليل الدامغ على شدة لهيب الشوق بين ضلوعه لان من العادة المألوفة في ايطاليا ولا سيما في ذاك العهد أن يبالغ المتحبب في كلامه وان كان لا يصور حقيقة هيامه . على ان هناك برهاناً لا يبقي ريباً في خطأ هذا القول عن نابوليون ، وهو بعض الكتب التي أرسلها في ذاك الوقت الى كارنو أحد رجال الديركتور والى أخيه جوزيف فان المطلع على تلك الكتب يرى بين تضاعيف سطورها تلك الاشواق كما رآها في كتب نابوليون الى جوزفين نفسها . ومما كتبه الى كارنو قوله « اني أشكر لكم العناية التي

تصرفونها الى قرينتي فهي وطنية صادقة وأنا مجنون بحبها . . . » .
ومما كتبه الى أخيه جوزيف « ان اليأس تولاني منذ علمت بمرض امرأتي فاضعت الصواب وتوالت عليّ الاوهام المخيفة فاسألك أن تبذل لها كل عناية . . . انك بعدها الانسان الوحيد الذي يهمني أمره فطمئني وقل الصحيح . . . انك لا تجهل مبلغ حبي الشديد ولا يفوتك ان جوزفين هي المرأة الاولى التي أعبدها فرضها يورثني اليأس . واذا كانت حالتها جيدة فانا أود من صميم الفؤاد أن تحضر لاني محتاج الى مرآها وضمها الى قلبي . . . أنا أحبها أشد الحب فلا يمكنني أن أبقى بعيداً عنها واذا كانت هي لا تحبني فاني لا أود بقائي في هـذا العالم . . . أيها الصديق المحب لا تدع البريد يتأخر أكثر من ست ساعات بل سارع الى ارساله ليعيد اليّ الحياة .
أودعك وأدعو لك بالسعادة أما أنا فقد شاء الدهر أن لا يبقى لي الا الظواهر اللامعة »

* * *

ويقي نابوليون يرسل الكتاب تلو الكتاب على هذا المنوال فيرى من جوزفين ضروباً مختلفة للتخلص من السفر حتى علمت ان جونو مرسلٌ من قبل نابوليون الى باريس ليحمل الرايات والغنائم التي غنمها نابوليون من النمسويين فخافت أن يوقف نابوليون على حقيقة أمرها وسلمت بالسفر معه ومع مورات في ٢٢ يوليو سنة ١٧٩٦ ولـكن صدرها كان منقبضاً وحزنها شديداً لفراق باريس . قال ارنو

في مذكراته « لقد كان جزعها شديداً عندما رأت ان السفر أمر لا مناص منه . يا لها من امرأة مسكينة! انها كانت تذرف الدمع الغزير وتشهق كأنها سائرة الى العذاب »

ولما وصلت الى تورين أرسل نابوليون مارمون للاقاتها ثم عاد معها الى ميلان حيث نزلت في قصر سربلوني وهناك قابلها نابوليون بشوق وحنان متدفقين وذكر مارمون تلك المقابلة فقال «ان الجنرال بونابارت سر بها ابلغ سرور لانه لم يكن يعيش الا بها واني لم أر حباً تملك قلب رجل وكان أصدق مظهراً واشد صفاء وأقوى اندفاعا من حب نابوليون لجوزفين »

على ان أوقات الصفاء والهناء لم تكن طويلة بعد وصول جوزفين لان الحالة الحربية اقتضت ان يسافر الجنرال نابوليون في أوائل يوليو من ميلان ويترك حبيبته هناك . وفي ٦ يوليو كتب اليها يقول « اني قهرت العدو . والتعب آخذ مني كل مأخذ فاسألك ان تحضري مسرعة الى فيرون لاني أحتاج اليك وأظن ان مرضي سيكون شديداً . أقبلك الف قبلة وانا في السرير » . وكانت مكاتيب نابوليون تزداد كلما طال الفراق . وفي ١٨ من ذاك الشهر كتب اليها يقول :

« انا قلق الفكر أود ان اعرف ماذا تصنعين . . . كنت في قرية فيرميل وجلست عند ضفة البحيرة على نور القمر الفضي وكنت اذكر على الدوام جوزفين ... اني أضعت علبة التبغ فارجو

ان تختاري لي علبة أخرى مسطحة قليلا وان تكتبي عليها كلمة جميلة من شعر رأسك ... الف قبلة فيها من الضرام بقدر ما عندك من البرودة » وكتب اليها « لقد نال اليأس مني لظنك اني أميل الى امرأة سواك . فانا ملك لك بحق الفتح الدائم الوطيد . ولست أدري لماذا تحدثيني في شأن مدام ت ... مع اني لا أهتم بها ولا بغيرها من نساء برتشيا ... وانا أعدك باني لا أفض مكاتيبك بعد الآن ما دام فتحها يكدر صفاءك . أما سفرك فليكن قبل اشتداد الحر وسأحضر لملاقاتك »

أنت ترى مما تقدم ان حب نابوليون لم يضعف ولكن شيئاً من القلق بات يخيم عليه . وانه صار يستشعر الخيانة ولكنه لا يستطيع ولا يريد تصديقها . وان مداراته لشعور زوجه المحبوبة بلغت به الى حد ان وعدها بالعدول عن فتح مكاتيبها . أما تظاهر جوزفين بالغيرة كما يؤخذ من أحد كتبها فلم يكن الا تحويلا لافكاره وتبديداً لشكوكه

الفصل السابع

سلوك جوزفين في ميلان

واذا نظرنا الى جوزفين في قصر سربلوني ، وجدناها تسلك المسلك الذي اتبعته في باريس ولم تتركه الا كاسفة آسفة . فقد اتفقت

أخبار الرواة على ان جمهوراً من الضباط الشبان أخذوا يلتفون حولها منذ وصولها الى ميلان ويبالغون في اكرامها والتزلف اليها ، وان كتب الشوق والرجاء والتضرع التي أرسلها نابوليون كانت تصل اليها وهي في ذاك المحيط بين ضروب الملذات وافانين المسرات وكانت تنتحل الاعذار التي الفتها في باريس لتؤجل سفرها الى حيث كان نابوليون . وما تمكن نابوليون من استقدامها الى برتشيا الا بعد الجهد الكبير والرجاء الكثير

ولكن اجتماع نابوليون وجوزفين في برتشيا لم يكن أطول من اجتماعهما في ميلان لان نابوليون اضطر الى السفر بحكم الحرب التي كانت ناشبة . فعادت جوزفين الى ميلان وقاست بعض الاخطار في عودتها . ومنذ هذا الحين ازداد سلوك جوزفين ظهوراً واخذ نابوليون يشعر شعوراً اكيداً بقلة اكترائها له وضعف ميلها اليه . ومع ذلك فانه بقي شديد الحب مضطرب الاحشاء بدليل ما كتبه اليها بعدئذ . وهاك بعض ما قاله :

« كنت أؤمل ان احصل على كتاب منك ، فخاب الامل وتولاني قلق مخيف لانك كنت منحرفة الصحة عند السفر فأرجو منك ان لا تدعيني في مثل هذا القلق ... كيف يمكنك ان تنسي من يحبك ذلك الحب الشديد ؟ آه ان الفراق هائل والليالي طويلة تدعو الى الملل ... فكري فيّ ، ولا تعيشي لغيري ، واقضي معظم

أوقاتك مع من يحبك فاني لا اخاف الا مصيبة واحدة وهي ان لا تحبني جوزفين »

ولما مضى يوم آخر ولم يرد عليه خبر كتب اليها « اني لم أر منك كتاباً فتولاني القلق الشديد . . . انهم يؤكدون لي أن صحتك جيدة وانك تنزهت عند بحيرة كوم »

وبعد أيام كتب اليها ينبئها بنصر باهر قال « أيتها الصديقة العزيزة لقد فشل العدو وخسر ثمانية عشر الف أسير وترك بقية رجاله قتلى أو جرحى ، وما أحرزنا قط مثل هذا النصر المستمر فان ايطاليا وفريول والتيرول أصبحت كلها في قبضة الجمهورية . . » ثم ختم نبأ النصر بقوله « انا سنجتمع بعد أيام قليلة وسيكون اجتماعنا الطف ثواب لي على ما قاسيت من التعب والجهد . الف قبلة حارة من عاشق متيم »

ولعل القارىء يسأل هنا كيف كان جواب جوزفين بعد ان وضع ذاك البطل العاشق غنائمه الحربية بين أقدامها ؟ هل باتت ترعى جانبه وتداري عواطفه ما دامت لا تستطيع حبه ، أو بقيت على حالتها المعروفة ؟ ان الكتاب الذي بعث به اليها في ١٧ سبتمبر يدل على حقيقة حالها وهاك بعض ما قاله فيه « كتبت اليك مراراً أيتها الصديقة ولم تكتبي لي الا قليلا . فأنت شنيعة جداً وشناعتك تضاهي خفتك وطيشك . . بل أنت خداعة تخونين عاشقاً متيما .

فهل أضاع يا ترى هـذا العاشق حقوقه لانه بعيد مثقل بالمتاعب

والاشغال ؟ ألا ماذا يبقى له في هذا العالم اذا خسر جوزفين وأبت أن تؤكد حبها له ؟

« نشبت أمس معركة شديدة كسرنا فيها العدو كسرة تامة وفجعناه بخسارة عدد كبير من الرجال واستولينا على ضواحي مانتو . أودعك أيتها المعبودة وسترين بابك يفتح في احدى الساعات بلا ضجة ولا ضوضاء فادخل كما يدخل العاشق الغيور وانطرح بين ذراعيك »

فانت ترى من هذا الكتاب ان الخوف من الخيانة بات يساور قلب نابليون ولكنه مثل كل عاشق أعماه الغرام فكاد يظن نفسه جانياً لغيابه عن حبيبته . فما أعظم الفرق بين ضلالة فكره في معترك الغرام ، واصالة رأيه في معترك المدفع والحسام !

ثم كتب اليها أيضاً « ماذا تعملين سحابة النهار ؟ وأي شغل هامّ لا يدع لكِ وقتاً لمكاتبة مغرم طيب القلب ؟ ألا أي حبيب جديد يستغرق كل أوقاتك ويقتل ساعات النهار فيمنعك من مراسلة زوجك ؟ حذار حذار يا جوزفين فاني سأباغتك وأخلع الباب ذات ليلة . . . . آمل ان اضمك بين ذراعيّ في وقت قريب وانهال عليك بقبلات حارة كجو خط الاستواء »

وفي ٢٧ نوفمبر (سنة ١٧٩٦) برح نابليون معسكره ووصل الى ميلان فوجد القصر خلواً من زوجته المحبوبة فسأل عنها فقيل له

أنها سافرت الى جنوى لترويح النفس وحضور بعض الحفلات ، فاستولى على نابليون ضرب من اليأس وكتب اليها يقول

« اني وصلت الى ميلان وأسرعت الى الطبقة المعدة لك في القصر تاركاً كل شيء لاراك واضمك بين ذراعي فلم أجدك لانك تنتقلين من مدينة الى أخرى في طلب الافراح والملاهي ولا تهتمين « بنابوليونك العزيز » لان قلة الثبات ولدت فيك قلة الاكتراث فما كان حبك الا هبة وقتية ما لبثت ان سكنت . . . على اني رجل ألفت المخاطر وعرفت دواء الضر والضجر اللذين يصيبان المرء في حياته . ولكن المصاب الذي نابني اليوم يفوت حد الوصف . . . أنا مقيم في ميلان الى التاسع من هذا الشهر فلا تزعجي نفسك ولا تتركي المسرات والملذات فان السعادة لك وحدك . والعالم يعدُّ بنفسه سعيداً اذا أعجبك ، وسوء الحظ لزوجك دون سواه »

ثم كتب اليها أيضاً « وصل بريد برتييه المرسل من جنوى ، وأدركت انك لم تجدي وقتاً لمكاتبتي . فانت بين الملاهي والملاذ وحقك أن لا تضحي بشيء من أجلي . وأنا لا أنوي أن أوقع خللا في حسابك أو أحرمك شيئاً من الملاهي اذ لا أستحق مثل هذا التسامح منك . وان رجلا لا تحبينه لا يكون من حقه أن تهتمي بشقائه أو سعادته . فليس لحياتي غاية او مقدور سوى امر واحد : هو أن أحبك وأسعدك ولا آتي أمراً يخالف مشيئتك . واني لمخطىء اذا كنت اتقاضى منك أن تحبيني بقدر حبي لك ولو فعلت لكان

مثلي مثل رجل يطلب أن يكون وزن القطن كوزن الذهب . على اني اذا كنت لا أملك من الجاذبية ما يجذب فؤادك فاني استحق الاحترام والاكرام من جوزفين . وان قلبي ليلتهب بنار حبها ولا يبغي بها بدلا

« أودعك أيتها المرأة المعبودة . أودعك يا جوزفين »

أليس من العجب العجاب سلوك تلك المرأة التي قدم اليها زوجها مع القلب المضطرم باقة من رايات النصر الباهر فلم تبدّل من سلوكها ولم تكبح من هواها بل استمرت على الخطة التي اتبعتها في باريس أي طلب الابتعاد عن زوجها وطلب التمتع بشهرته ومجده ، فكان لسان حالها يردد له « أسعدك الله لاجلي وأبعدك عني . . . » وروى ستاندال في مؤلفه ان الضباط الشبان الذين كانوا يحيطون بجوزفين في ميلان وجنوى جنوا بها تحمساً وابتهاجاً وكانوا مستعدين استعداداً عجيباً لسبي العقول . وأخص من يُذكر منهم ضابط شاب اسمه هيبوليت شارل وهو من طبقة الشبان الذين يبالغون في العناية والاهتمام بانفسهم وملابسهم ، كان نحيف الجسم أسمر اللون أسود الشعر يلبس زي الهوسار ويكثر من النكات واللطائف ويروّح نفوس الجلوس باحاديثه وحكاياته . ويقال بالاجمال انه من الشبان الذين يُعدون خطراً كبيراً على الزوجات اللواتي لم يحببن ازواجهم ولم يجدن مناصاً من الضجر ، ولقد تملك قلب جوزفين على ما يظهر وشاع خبر ميلها اليه بين رجال الجيش حتى اضطر نابليون الى عزله

وعزل ضباط آخرين من الذين تزلفوا الى جوزفين في غياب رئيسهم وقائدهم الاكبر

واعل القارىء يسأل هنا ماذا جرى لجوزفين بعد تلك الكتب وتلك الحوادث ؟ جرى ان نظرة واحدة منها بعد رجوعها الى ميلان خففت من حدة نابليون وكسرت من شوكته فاضمر حزنه في اعماق صدره كما ذكر في كتاب ماض وغفر لها ذنبها ، ولكن الخيبة ضربت أمله وأدمت فؤاده حين رأى قلب زوجه خالياً منه . وكان نابليون كمعظم الازواج العاشقين ينتحل لها الاعذار في سره ويعزو فعلتها الى خفة قليلة الشأن

قالوا ان خوفه من الرأي العام واحتفاظه بطيب السمعة لدى السفراء ورؤساء الدين الذين كان يسمعهم كل يوم خبر نصر جديد ، ورغبته في الظهور لدى اوربا ، كل ذلك حمله على اجتناب الفضيحة وستر الامر . ولقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن هناك قولا آخر لا ريب فيه وهو ان حب نابوليون كان حائلا كبيراً دون عقاب جوزفين ، وان نابوليون كان من جهة أخرى يأبى الاضرار بها حتى بعد زوال الحب وبعد الطلاق . فان رسائله كلها تدل على ان هذا الغرام تحوّل الى صداقة قديمة ساكنة ، وان نفسه أبت عليه ان يتذكر حينئذ خيانتها وبرودتها في معاملته وقلة اكتراثها لما أبداه من الرجاء والتضرع والتذلل

واليك حكاية صغيرة تدلك على ان ذاك الرجل الذي كان

يسيز ألوف الابطال بكلمة لم يكن يستطيع أن يخرج كلباً صغيراً من بيته . قال نابوليون يوماً لارنو عند ما رأى الكلب الصغير فورتينه يتسلق أحد المقاعد « انظر الى هذا السيد فهو نديّ ومنافسي ، ولما تزوجت جوزفين كان فراشها ملكا له من قبلي . وقد أردت يوماً ان أخرجه منه فقيل لي أنت بين أمرين اما ان ترضى بالنوم معه واما أن تنام في محل آخر ، فاضطررت ان أقبله معي » ثم أشار نابوليون الى أثر عضة في فخذه ، ويظهر ان هذا الكلب نفحه بها تلك الليلة وهو ما جعل نابوليون يكتب الى جوزفين بعد حين قائلا « ألف قبلة لك ولفورتينه وان كان شريراً . . . »

ولما توفي فورتينه جلبت جوزفين كلباً آخر برغم نابليون . فانظر الى البطل الذي كان يسوق اجيوش أمامه كيف يعجز عن سوق كلب الى خارج بيته ، وأعجب لبطل يفتح البلدان والعواصم ولا يجسر على فتح كتاب لامرأته

الفصل الثامن

نابوليون مع أسرته

كثرت الاقاويل عن سجية نابوليون في وسط أسرته . فقيل انه كان في الغالب معبس الوجه راغب في الجد . وقيل بل كان يسترسل في أحيان كثيرة الى المزح والمداعبة . على ان هناك

حقيقة لا ريب فيها وهي ان نابوليون كان يجد لذة كبيرة في الحياة بين أهله . وهو ماحصل عليه مدة من الزمن بعد صلح كامبو فورميو فانه كان وقتئذ يعيش عيشة عيلية تحيط به أمه وأختاه أليزا وبولين واخواه جوزيف ولويس ومعهم اوجين ابن محبوبته وزوجته وقد جعله ياوراً خاصاً . وليس يدلنا على حقيقة عيشته في ذاك الوقت مثل أقوال شهود العيان . قال مارمون « ان نابوليون كان يظهر في بيته كثيراً من الانبساط والطلاقة وبساطة المعاشرة ما كاد ينتفي معه كل تكلف . وكان يحب المزح ويجتنب في مزحه الكلام المر . واتفق له غير مرة ان شاركنا في ألعابنا وحمل المفوضين النمسويين على الخروج من رزانتهم لمشاركة اللاعبين »

وروى أرنوك « ان نابوليون نفسه كان يدبر أمر اللهو بعد خروجنا من غرفة الطعام الى الردهة . وكان اذا رأى الحديث مائلا الى السكون حركه بالاقاصيص والحكايات الملفقة الغريبة التي كان يجنح اليها »

ولما كان في مونتبللو زف أخته بولين الى الجنرال لكاريك ابن أحد تجار الدقيق وبعد أشهر قليلة تزوج الضابط باشيوشي أليزا أخته الثانية . وليس من الغلو أن نستنتج من قبوله هذين الرجلين ان نابوليون لم يكن يحلم وقتئذ بالتيجان لاسرته »

وانتقد بعض المؤرخين على نابوليون في ذاك الحين انه كان يتطلب المبالغة في اكرامه واحترامه ويستقبل الناس على وجه لم

بالفوه . بيد ان المنصف لا يسعه أن يوافق على هذا الانتقاد لان منصب نابوليون في ذاك الحين كان يقتضي ذاك السلوك . ألم يكن قائد جيش كبير يحتاج الى احترام الناس . ألم يكن صاحب علم منصور تتحدث بنصره الدنيا من أقصائها الى أقصائها . ألم يكن الرجل الذي دان له أرباب التيجان وملك بلاد الطليان . أو لم يكن فوق هذا كله ممثل دولة عظيمة الشأن ؟ نعم ان نهوض ذاك الرجل الذي كان في ظلام النسيان قبل هذا المجد ببضعة أعوام ، لم يكن مألوفاً عند الاقوام . ولكن كل عجيب وعظيم غير مألوف لدى العوام . . .

الفصل التاسع

المشاغل الحربية في ذاك الوقت

ليس من غرض هذا المؤلف أن نشرح المعارك والانتصارات التي خلدت ذكر البطل الكورسكي . على اننا لا نرى بأساً في ايراد موجز للمشاغل الحربية العظمى التي كانت تشغل نابليون أيام بعث بتلك الكتب الغرامية ونظر في أموره العيلية . لان اظهار تلك المشاغل يجعل العبرة أبلغ وأقوى ويقرنها بفائدة تاريخية . قال القومندان كاود برجيه في تاريخه ما صفوته :

انه لما سافر نابليون الى ايطاليا ليستلم القيادة من الجنرال شرير

(كما تقدم) كانت الحالة الخارجية تهدد فرنسا بالخطر . أجل ان جنود الجمهورية كانت تدافع عن حدودنا الشمالية دفاعاً جميلا سنياً ولكن فرنسا كانت ترى أمامها عدوتين شديدتين أولها انجلترا المعتصمة في جزرها والثانية النمسا الملتهبة شوقاً الى طلب الثأر .
وكان نخبة القواد النمسويين يقولون ويكررون « ان ايطاليا ستكون قبراً للجنود الفرنسوية . ولما وصل نابليون الى مدينه نيس حيث كان معسكر الجيش العام رأى فيه القواد أوجيرو ولاهارب ويرتييه وماسينا وسرورييه وكلهم من الذين قادوا الجحافل وخاضوا العجاج فجعلوا ينظرون بعين الاستخفاف الى الجنرال الضئيل النحيل الذي قدم ليتولى القيادة العامة . وكان عدد الجيش الفرنسوي لا يتجاوز ستة وثلاثين الف رجل ، وكانت ملابسه قديمة ، ورواتبه متأخرة ، في حين ان الجنود النمساوية وحلفاءها أبناء بيومون كانوا اربعة وثمانين الفاً مسلحين بثلاثمائة مدفع ومعهم قوة كبيرة من الفرسان . فكان كل جندي فرنسوي مضطراً وهو على تلك الحال الى مقاومة ثلاثة من الاعداء الحاصلين على الغذاء والكساء

ولكن الجنرال نابليون كان يعرف ما تنطوي عليه ضلوع الفرنسوي من العزيمة والحماسة ويعرف كيف يستنهض تلك العزيمة ويثير تلك الحماسة فجمع قواده وجنوده وأراهم من أعالي الالب السهول الخصيبة في بيومون ولومبارديا وحرضهم قائلا :

يا جنود جيش ايطاليا . ان الحكومة تريد لكم خيراً كثيراً

ولكنها لا تجد اليه سبيلا . وان صبركم وشجاعتكم لما يكسبكم الفخر ولكنهما لا يجلبان المنافع ولا يكسبان المجد . وها أنا أنزل بكم اليوم الى أخصب سهول العالم فتجدون المدن العظيمة والاقاليم الغنية وتحرزون معها الفخر والمجد والغنى . فيا أيها الجنود هل تنقصكم البسالة فتتقاعدون ؟

فما انتهى نابليون حتى تفتحت له قلوب القواد والجنود قبل فتح تلك السهول . ونحن نتساءل هنا : أصاحب هذا القول هو نفسه كاتب تلك المكاتيب التي قرأناها ؟

وكان همّ نابليون في ذاك الوقت أن يشطر اعداءه شطرين ويضرب كل فريق منهما على حدة فأمر الكولونل راميون بان يدخل حصن مونتجيو بقوة لا تزيد عن ١٢٠٠ رجل وبأن يقطع طريق مونتلنوت على النمسويين فأتى من الشجاعة عجباً عجاباً هو ورجاله ، وصدوا حملات النمسويين ثلاث مرات . وفي ابان الهجمة الثانية التفت الى رجاله قائلا « ان القائد العام يطلب الينا الثبات حتى النهاية فاقسموا انكم تموتون ولا تتركون الحصن » فصاحوا « انا لمقسمون . . . » . وبفضل ذاك الدفاع العجيب تمكن نابليون من التقدم ومن ضرب النمسويين ضربة مزقت شملهم . وكان القسم الآخر من الاعداء أي جنود بيومون الى يسار نابليون فوكل الى بعض قواده الاجهاز على القوات النمسوية التي عادت فتجمعت ، والتفت هو الى الجنرال كولي قائد جيش بيومون فشطره واضطره

الى التقهقر تاركا بين أيدي الفرنسويين ٣٠٠٠ أسير اضافها الى ٩٠٠٠ من النمسويين و٢١ راية و٣١ مدفعاً

ولما بلغ ملك سردينيا خبر هذا النصر النمس هدنة من الجنرال بونابرت فدهشت أوربا اذ علمت أن جيشاً فرنسوياً لا يزيد عن ثلث أعدائه اضطرهم الى طلب المهادنة . أما نابوليون فمنحه المدنة بشرط أن يسلم الاعداء الى الفرنسويين ثلاثة حصون كبيرة ومخازن المؤونة فقبل وانتقل الجندي الفرنسوي من العسر الى اليسر بفضل بسالته وبراعة قائده في ميدان الجدال ومجال القتال .

وفي تلك الاثناء أرسل نابوليون مورات الى باريس ليحمل الى حكومة الديركتوار الاحدى والعشرين راية التي غنمها من النمسويين (والتي من أجلها لقب الجمهور الباريسي جوزفين بسيدة النصر) . فعقد الديركتوار جلسة حافلة وقرر « ان جيش ايطاليا استحق شكر الوطن » ثم أُقيمت « حفلة النصر » في العاصمة

على ان نابوليون لم يكن يرى نصره وافياً بالمرام ولم يشأ أن يغمد الحسام قبل أن يقهر الاعداء قهراً تاماً فلا يبقى لهم قبل بالدفاع . وعلى هذا العزم برح نابوليون وجيشه بلاد بيومون قاصداً لومبارديا واجتاز نهر ادّا على جسر لودي حيث كان المدافعون النمسويون . وهناك أظهرت الجنود الفرنسوية بأساً عظيما وقتلت رجال المدفعية وفتكت بصفوة الالايات النمسوية . وفي الوقت نفسه عبر الفرسان الفرنسويون النهر وانقضوا على الاعداء من ورائهم فحولوا كسرتهم

الى انهزام . ودخل الجيش الفرنسوي كريمون وبافي . ولما طار الخبر الى ميلان برحها الارشيدوق النمسوي هارباً مدحوراً فدخلها نابوليون فاتحاً منصوراً ، ولقي من الجمهور كل ترحاب وسرور . وضرب ضريبة حربية قدرها عشرون مليون فرنك على البلدان المفتوحة وقبل الطاعة من دوقي بارم ومودين . ثم كافأ جنوده بالكلمات الآتية:

« أيها الجنود انكم لمستحقون شكراً جزيلا من الوطن ، وان السلالات القادمة ستتداول أخبار انتصاراتكم . وسيبقى مجدكم خالداً بما غيرتموه في أجمل شقة من أوربا وستمنح الامة الفرنسوية الحرة والمحترمة في العالم كله بلاد أوربا سلماً مجيداً وأنتم سترون مواطنيكم يشيرون اليكم بالبنان بعد رجوعكم الى الاوطان وسيقولون لاولادهم كلما رأوا أحدكم « ان هذا الشجاع كان في جيش ايطاليا »

ولكن هذا النصر الجديد لم يكن كافياً أيضاً فان جمهورية جنوى وجمهورية البندقية أصرتا على المقاومة . والجيش النمسوي تلقى نجدات أخرى رجاء ان « يقهر الجيش الفرنسوي الصغير » كما وصفوه مع فشلهم الفاضح . وكانت انكلترا من جهة أخرى ترسل المبالغ العظيمة من الذهب الى مندوبيها السريين بقصد ان تثير الفلاحين اللومبارديين على الفرنسويين فتمكن المندوبون من تدبير مكيدة عظيمة على جنود فرنسا وقرروا أن يباغتوهم ويذبحوهم في اليوم الثاني لعيد الفصح . ولكن عين نابوليون كانت ساهرة على جنوده فعرف بالمؤامرة واتخذ أشد الذرائع لافسادها وأحرق مدينة

باقي ما عدا منازل سبالازاني وفولتا لانهم كانوا من اكابر العلماء ، فكان لعمله تأثير جميل في نفوس محبي العلم والعلماء ونقض كلمة ذاك الثائر الوحشي الذي قال للعالم لافوازييه حين ساقه الى الاعدام « ان الجمهورية غير محتاجة الى علماء . . . »

ومما يذكر ان البابا بيوس السادس انضم وقتئذ الى أعداء فرنسا فأمر نابوليون القائد اوجرو بأن يكتسح املاكه وتقاضى منه ضريبة حربية قدرها واحد وعشرون مليون فرنك . وفي تلك الاثناء قدم الجيش النمساوي الجديد وعاجل الفرنسويين بهجوم شديد فأخذ منهم مانتو وجال في ظن الاهلين ان ايطاليا تملصت من الفرنسويين ، ولكن نابوليون كان وحده أعظم من جيش كبير مع ذاك الجيش الصغير فوضع خطة أسفرت عن تغلب عشرين ألف فرنسوي على ستين ألف نمسوي وعن سقوط عشرين ألف رجل من العدو بين قتيل وجريح . ثم زحف بابطاله قاصداً التيرول واحتل أهم مدنها وقهر جيشاً نمسوياً ثالثاً . ولكن النمسويين أصروا على عنادهم وأرسلوا جيشاً رابعاً مؤلفاً من خمسين ألف رجل فانضم الى بقايا الجيوش الثلاثة

وكان التعب اذ ذاك آخذاً مأخذاً كبيراً من الجيش الفرنسوي لان خسارته كانت عظيمة ، وبعض قواده سقطوا في ساحة المجد ، فلم يكن له بدٌّ من فكرة جديدة سامية تلمع له من جانب قائده الاعظم . وما لبثت تلك الفكرة ان سطعت في ابان

الشدة كما يسطع البرق وسط السحاب المتلبد القاتم . فان نابوليون أمر جنوده بان تعود فتجتاز نهر اديج وتسير نحو ميلان ليوهم الاعداء انه عمد الى التقهقر ، فتوهم القائد النمسوي ألفنزي ان التقهر أكيد ورأى جيش نابوليون يحتل السدود الواقعة عند المستنقعات ، فلم يدر في خلده انه يجسر على اضرام نار القتال هناك ولا سيما ان عدد جيشه نزل الى ثلاثة عشر الف رجل في حين ان النمسويين أضعاف هذا العدد . أما نابوليون فقال « النصر أو الموت » وقذف بجانب من جنوده الى جسر اركول الشهير وزحف قواده العظام لان ومسينا واوجرو في طليعة الجنود ، ولكن نيران الاعداء اشتدت الى حدّ هائل ومنعت الجنود من اجتياز الجسر فاخذ نابوليون عندئذ راية فرنسوية وصاح في الجنود « ألستم الذين انتصروا في لودي ؟ ألا فاتبعوا قائدكم » فما أتم كلامه حتى هجم الجنود كالاسود . ولكن النيران النمسوية صدتهم مرة أخرى وسقط نابوليون نفسه في مستنقع فانقذه بعض جنود الغرناديه بعد الجهد الشديد

وقضى الفرنسويون ذلك الليل تحت السلاح ، وفي اليوم التالي بذلوا جهداً عظيماً فاجتازوا النهر على جسر وقتي . وبينما كان النصر يتراوح بين الفريقين بدت لنابوليون فكرة أخرى سديدة وهي أنه أمر ضابطاً في رتبة ملازم وثلاثين جندياً بأن يأخذوا ٢٥ طبلاً ويتقدموا نحو العدو ضاربين على الطبول بمنتهى الشدة .

فما تعالت أصوات الطبول حتى ظن النمسويون ان نابوليون انقض عليهم بجيش آخر من ورائهم فلم يروا من وسيلة الا طلب النجاة

على هـذا الوجه انتهت تلك المعركة التي بقي فيها نابوليون وقواده وجنوده ثلاثة أيام بلا راحة فكرية ولا جسمانية ، والتي تغلب فيها ثلاثة عشر الف فرنسوي على أربعين الف نمساوي واضطروهم الى التقهقر . وما اكتفى نابوليون بالفوز العسكري بل طلب معه فوزاً ديمقراطياً فانشأ جمهوريتين في شمالي ايطاليا وهما جمهورية سيبادان وجمهورية ترانسبادان

وبعد أيام قليلة وصلت نجدة فرنسوية فصار عدد الجيش الفرنسوي عشرين الفاً ولكن الاعداء ما لبثوا أن صاروا ثلاثة أضعاف هذا العدد لان النمسا أرسلت جيشاً خامساً والبابا أرسل اليها نجدة عددها ستة آلاف رجل فزحف القائد النمساوي بمجموع تلك القوات من أنجاد ريفولي حيث كان ينتظره نابوليون ، وقبل أن يتمكن ذاك القائد من اعداد بطارياته عاجله نابوليون بالهجوم واستمر القتال دائراً نحو اثنتي عشرة ساعة ثم اسفر عن انتصار نابوليون وفشل النمسويين وحلفائهم فشلا تاماً وعن وقوع جميع مدافعهم غنيمة في أيدي الفرنسويين . وفي تلك المعركة التاريخية استهدف نابليون للمخاطر وقتل تحته ثلاثة من الجياد ، وفي ثمانية ايام خسر النمسويون ٣٥ ألف رجل و٦٠ مدفعاً وعشرات من الرايات

ولكن النمسا لم تكف مع ذلك كله عن حشد الجنود فاعدت

جيشاً سادساً تحت امرة الارشيدوق شارل نفسه ولم تعتبر بان اولئك الفرنسويين الذين لم يجمعوا في ستة أشهر كاملة اكثر من ٣٦ ألف رجل قهروا بهذه القوة وحدها ٢٦٠ ألف رجل منهم ٢٠٠ ألف نمساوي ، وقاتلوا في ستين معركة . فما وصل الجيش النمسوي الجديد حتى كسره نابليون شر كسرة ثم زحف الى النمسا نفسها ليعاقبها فدخل فينا واضطر الحكومة النمسوية الى عقد الصلح والاعتراف بضم البلدان التي قرر ضمها الى الجمهورية الفرنسوية (معاهدة كامبو فورميو ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧)

ثم عاد نابليون الى باريس حيث استقبل باحتفال عظيم باهر وسلم تلك المعاهدة الى باراس رئيس الديركتوار

فليفكر القارىء كيف كانت حال نابليون وكم كانت مشاغله عظيمة أيام أرسل تلك الكتب الغرامية الى جوزفين . . .

الفصل العاشر

الى مصر

مع رجال الحرب ورجال العلم

(سنة ١٧٩٨)

لشدة ما قاسى نابوليون من مقاومة انكلترا المعتصمة في جزرها أعد حملة مصر ليجعلها أول مرحلة في غزو الهند . ثم زاده عزماً

على هذا الامر ان الاستيلاء على وادي النيل يؤيد نفوذ دولته في البحر المتوسط

وفي أوائل مايو من تلك السنة تم استعداد الحملة ، وفي الرابع منه برح نابوليون باريس ومعه جوزفين . وفي ٨ ابريل وصل الى طولون ، وفي ١٩ منه أبحر على البارجة أوريان بعد ان ودع جوزفين وداعاً مؤثراً . وقيل ان جوزفين عرضت عليه أن تسافر معه تلطفاً ومجاملة فأبى ان يستصحبها في هذا السفر المحفوف بالمخاطر

وفي ١٣ يونيو وصل نابوليون الى جزيرة مالطة فأخذها عنوة ، وفي ٢ يوليو نزل بثغر الاسكندرية وبدأ أعماله الحربية . وكان عدد جنوده ٣٥ ألفاً ومعهم جملة من العلماء مثل شامبليون وفوربيه وبرتوليه وموبج وغيرهم من الذين تركوا آثاراً خالدة

وكان نابوليون مع أشغاله الكثيرة والاخطار المحدقة به يفكر على الدوام في جوزفين ويخشى طيشها وخفتها بدليل ما كتبه الى أخيه جوزيف حيث قال « اكرم جوزفين وزرها بين حين وآخر وارجُ من لويس أن يقدم لها نصائح حسنة . . »

وبينما كان نابوليون في معامع القتال وصل اليه من التقارير عن جوزفين ما هاج غيرته وزاد قلقه فكتب الى أخيه جوزيف كتاباً قال فيه « ان احزاناً بيتية كثيرة ترهق فؤادي ، فاعد لي منزلا في ضواحي باريس أو في بورجون لاعتزل فيه مدة الشتاء فقد مللت الطبيعة البشرية وصرت أود العزلة وأملّ العظمة . . »

وقال اوجين ابن جوزفين في مذكراته « ان الحزن كان يخامر قلب القائد العام بسبب استياء جانب من الجيش وبسبب الاخبار التي كانوا يرسلونها من فرنسا لتكدير صفائه العائلي ، وكان الجنرال نابوليون يثق بي مع صغر سني ويطلعني على حزنه فأحاول تعزيته وتلطيف حزنه بقدر ما يسمح لي عمري واحترامي له » . ولا شك في ان نابوليون لم يلق بسره الى ابن زوجته وهو لم يكن يتجاوز الثامنة عشرة ، الا لأن قلبه كان طافحاً بالحزن والاسى

وحدث في شهر فبراير سنة ١٧٩٩ (أي يوم كان نابوليون واركان حربه في العريش) ان جونو أوقفه على أمور تميز منها غضباً فقال لبوريين وكان يحسبه واقفاً على أحوال جوزفين « انك لو كنت تحبني لأخبرتني بما أخبرني به جونو .. هذا هو الصديق .. جوزفين ، جوزفين . . . خانتني ! . . . أنها اذا كانت حقيقة مذنبة فلا بدّ من الطلاق . انا لا اريد أن اكون اضحوكة العاطلين من الباريسيين . وسأكتب الى جوزيف في طلب الطلاق »

أما الاساس الذي بنيت عليه تلك الشبهات واضرمت نار الغضب في قلب نابوليون في بيداء الصحراء فهو على ما روى جوهييه « ان جوزفين لقيت لسوء طالعها الضابط هيبوليت شارل (الذي عزله نابوليون من جيش ايطاليا لشدة تزلفه اليها) وكان لا يزال شاباً لطيفاً قوي الجاذبية فسعت لادخاله في شركة لويس ليبون

وبعد حصوله على هـذا المركز فرش منزلا جميلا ثم أخذ يزور جوزفين في ماليزون وانتهى الامر بأن نزل بمنزلها وصار السيد « الآمر » فتواترت الاشاعات السيئة عنها في العاصمة الفرنسوية وجازت البحر المتوسط الى أذن نابوليون فتولاه ذاك الغضب الشديد ونفر قلبه منها حتى بات يتمنى الطلاق ويمكننا أن نقول على صواب أن ضرام الغرام في صدر نابوليون خمد من ذاك الوقت ، فانصرف فؤاده في مصر الى بولين فوريس زوجة احد الضباط واشتهر أمر هـذا الحب الجديد بين رجال الجيش حتى لقبوها « بسيدتنا في الشرق » وما كان نابوليون نفسه يحاول اخفاء علاقته بتلك المرأة الجميلة بل كان يتنزه معها في مركبة واحدة وبلغ به الامر أن أبعد زوجها عن مصر . ولقد وصفها المؤرخون بأنها كانت شقراء حسناء لعوباً ظريفة لطيفة

***

وبينما كان نابوليون يعزّي النفس بالمحبوبة الجديدة ويضمر الطلاق للمحبوبة القديمة ، كان جوهييه رئيس الديركتوار يسبغ النصائح لجوزفين في باريس ويحاول أن يرجع بها الى الطريق القويم أو يقنعها بوجوب الطلاق خوفاً من ازدياد الفضائح . وهاك ما قاله لها يوماً بتهكم لاذعٍ « أنتِ تقولين انه ليس بينك وبين هيبوليت شارل الاّ صداقة خالصة ولـكن الصداقة اذا كانت بحيث تحملـكما على ترك اللائق المتبع بين الناس أصبحت كالغرام . وهي اذا كانت

صداقة منزهة الى ذاك الحد كما تقولين يمكنها ان تقوم لديكِ مقام كل شيء . فطلقي وثقي بأن ما تفعلين يجلب لك الا كدار والاحزان »

ولكن جوزفين أبت ان تسمع تلك النصيحة الحكيمة لأنها كانت تريد أن تبقى زوجة الفاتح العظيم وتحصل على جميع الحقوق المقررة لها بدون ان تؤدي جميع الواجبات وربما كانت تعتقد ان شدة حب نابوليون لها يصرفه عن طلب فراقها . ولما اشتدت الزوبعة حولها وتلقت بعض الكتب التي تدل على تميز نابوليون غضباً وسخطاً عليها وتشير الى قرب رجوعه من مصر الى باريس أخذت تكثر من الزيارات لمنزل الموسيو جوهييه وتتحبب الى زوجته على امل ان يكون امتزاجها بأسرة جوهييه مخففاً للشكوك . ولما علمت بقرب وصول نابوليون قالت لمدام جوهييه « اني سأذهب لملاقاته ومتى علم انكم عشرائي الاخصاء يصبح لكم شاكراً وبصحبتكم مفاخراً »

وما بلغ جوزفين نزول نابوليون وخلاصه من البوارج الانكليزية التي كانت تسود البحر المتوسط أسرعت الى ليون لتلاقيه ، ولكن نابوليون قدم من طريق بوربونيه (اسم ولاية فرنساوية قديمة معظم بلادها داخل اليوم في مقاطعة الييه) فلما وصل نابوليون الى منزله ورآه خالياً من زوجته تعاظم غضبه . وبعد وصوله بثمانٍ وأربعين ساعة عادت جوزفين الى باريس فأبى نابوليون أن يقابلها وأبلغها عزمه على الطلاق فعندئذ خاب أمل جوزفين ورأت الوهدة العميقة التي

بينها وبين ذاك البطل الذي شرفها وأحبها الى حد العبادة

فيا لله ما كان أحرج موقف نابوليون في ذاك الوقت، فقد كان يرى من جهة ان الخطر الداخلي مهدداً بلاده والحالة فيها تتدرج من من سيء الى أسوإ منه، وتقضي باسقاط الهيئة الانتخابية ولا يخفى ما في ابدالها من المصاعب التي لا تذللها الا همة أرسخ من الرواسي ثم يرى من جهة اخرى عرضه مضغة في الافواه فلا يجد سبيلا الى صونه الا سبيل الطلاق الاليم

اما سياسة جوزفين في ذاك الموقف الحرج فانها كانت سياسة التذلل والتضرع ولقد أصابت في تفضيلها على كل سياسة أخرى لانها لو قابلت الجفاء بمثله لجزم نابوليون في الامر ولكن جوزفين درست جيداً ما انطوى عليه ذاك القلب الذي مال عنها وأدركت ان الحب القديم لا يزال له طابع على صفحته فأخذت تصرف الجهد في معالجته ولما ظهر ان نابوليون لم يدعُ أحد رجال القضاء لساعته فيبرم معه امر الطلاق ويتخذ الوسيلة الحاسمة الفاصلة، وانه اظهر استعدادا لقبول الايضاح ورؤية الدموع من اعين جوزفين — لما ظهر هذا كله قال العارفون ان جوزفين «ربحت قضيتها» مرة اخرى وان كانت على خطأ. وأول ما فعلته في هذا السبيل انها ارسلت ابنها اوجين وابنتها اورتانس الى نابوليون ليتوسطا لها ويستنزلا عفوه فدخلا باكيين وانطرحا بين قدميه وتضرعا اليه ان لا يترك امهما ويعيدهما يتيمين كما كانا، فرق قلب نابوليون لهما

وتقبل امهما من بين ايديهما ، ومن ذاك الحين غيرت جوزفين سلوكها وخافت ان تقع في الوهدة التي حفرتها بيدها وصارت تتحبب الى نابوليون وتصنع له ما يشاء . بل صارت تفرغ جهدها في خدمته من كل الوجوه حتى الوجه السياسي . ومما يذكر انه لما وُكل الى نابوليون قلب نظام الاحكام في تلك الايام كان من مصلحته أن يتحول فكر جوهييه رئيس الديركتوار عما أراد اتخاذه من الوسائل لمفاجأة المجلس النيابي فتولت جوزفين هذا الامر ودعت ليلة الحادث جوهييه لتناول العشاء عندها فتمّ ما اراده نابوليون في غيابه

ولقد اكد الذين وضعوا مذكرات ومؤلفات في موضوعنا ان جوزفين أخذت تحب نابوليون حباً اكيداً وتظهر غيرة شديدة من ذاك الحين ، وان حبها كان يزداد كلما شعرت ان قلب نابوليون أخذ يميل عنها وانها أخذت تتقدم في مدارج العمر

على ان نابوليون لم يكن يظهر لها جفاء بل كان على العكس يحاسنها ويهتم بإراحتها ، واذا كان لم يجد بعد ما جرى لذة الزوج السعيد فانه كان يريد الراحة والسكون وطيب السمعة لبيته ، فلا كلام عن الغرام ولا شكوى من ضرام الهيام مما كان يشرحه « للصديقة المعبودة » في سالف الايام بل كل ما هناك أقوال تدل على مودة واكرام

الفصل الحادي عشر

العاطفة الابوية

عند نابوليون

لم يكن سلوك جوزفين الماضي مؤثراً في حب نابوليون لابنها اوجين فانه كان يريد خير هذا الفتى ويُعد خير اب له ، بدليل ما كان يسديه من النصائح اليه . فقد كتب ايام حملة مصر يقول لهُ « سر دائماً مع الجنود ونم تحت الخيمة ولا تركن الى العرب واكتب اليّ في كل فرصة . انا أحبك » وكتب اليه كذلك « لا تنم مكشوف العينين في مهب الهواء . اقبلك » . وكان اوجين يشعر بذاك الحنو ويقابله بالاكرام والاخلاص بدليل ما قاله نابوليون نفسه « ان اوجين كان اذا سمع صوت مدفع اسرع ليرى ما جرى واذا كان امامنا حفرة فهو الذي يمد يده اليّ » . وكان نابوليون يقول « ان اوجين يستحق أن يكون قدوةً لجميع الشبان الذين في سنه » . على ان هذا الحنوّ لم يكن يمنع نابوليون من ارشاد اوجين بكلمات شديدة اذا اقتضت الخدمة ولكنه كان يختم كلامه على الغالب بعبارة تخفف من تلك الشدة ، ولما عينه في ايطاليا كتب اليه « ان قلبي لا يعرف احداً أحبّ اليه منك » . وكتب ايضاً « يا بنى اني

مرسل اليك سيفاً كنت أتقلده في حرب ايطاليا فعسى ان يكون طالعه حسناً عليك »

ولما أراد نابوليون أن يعقد قران أوجين وابنة ملك بافاريا بذل كل همّة في ازالة المصاعب من سبيله وتبنّاه على وجه رسمي . وبعد عقد الزواج قال نابوليون للعروس « لا شيء من المشاغل التي تحيق بي أحب الي مما يضمن سعادة ولديّ ، فكوني واثقة يا اوغستا ان لك في قلبي من الحنوّ ما في قلب الاب لابنته . لا تغفلي مداراة صحتك في السفر لاني لا أريد ان أراك مريضة . عليكما مني البركة الابوية »

وكتب اليها بعد ان صارت حاملاً « يا ابنتي انك على صواب في اعتمادك على حبي وعطفي فلا تهملي مراعاة حالتك الحاضرة وابذلي جهدك حتى لا تأتينا بنت ، ويمكنني ان أصف لك الدواء الذي ينفعك ولكنك لا تصدقيني : ان الدواء هو ان تشربي كل يوم قليلا من الخمرة الصافية »

ولما ولدت بنتاً كتب الى اوجين يقول « اذا كانت اوغستا مكدّرة الصفاء لانها ولدت بنتاً فقل لها ان التي تبدأ ببنت تلد اثني عشر ولداً » . ولو شئنا ان نذكر المكاتيب التي من هذا الطراز لاستغرقت عشرات الصفحات . فحسبنا ما تقدم دليلا على شعور نابوليون وحبه لابن جوزفين . وان المرء ليدهش من اهتمام نابوليون بأكثر امور اهله وذويه ومن بقاء فكره مطلقاً حراً مع ان

بعض اشغاله في ذاك الوقت كان يستغرق اوقات أعلى الرجال همة وأمضاهم عزيمة وأسدّهم رأيا

وكان نابوليون في ذاك الوقت امبراطوراً للفرنسويين ، ونجم سعده يتلألأ في سماء العالم ، وجوزفين ممتعة بمجده على ذاك العرش الاسنى . الا انها تجاوزت حدّ الصواب والحكمة في بذل المال ، وكثيراً ما شكا الامبراطور نابوليون من اسرافها . قالت الآنسة افريلون التي كانت في حاشيتها « ان الامبراطور كان ينحي باللائمة على الامبراطورة لانها لم تكن تحسب حساباً للمال ولم تكن تجد من الشجاعة ما يساعدها على رفض أي تاجر يعرض عليها بضاعته » . وقال كونستان في مذكراته « ان تبذير الامبراطورة جوزفين كان في كل آن مدعاة لتكدير صفاء الامبراطور » . وحدث يوما ان الامبراطور علم بوجود عجز مالي قدره مليون فرنك في ميزانية جوزفين فغضب قائلا « هـذا كله لقصاصات من الاقمشة ! . . . لتركها النصابين المحتالين يبتزّون الاموال ! . . . انه لمن الواجب ان اقفل بابي دون كل تاجر »

ولقد أثرت اعمال جوزفين في احكام نابوليون من وجه عام على السيدات بدليل قوله يوما في مجلس الدولة « ان النساء لا يشتغلن الا بالملاهي والملابس . أفليس من الواجب أن يضاف على القانون ان المرأة لا يحق لها أن تقابل من لا يريده زوجها ؟ »

وليس في وسعنا ان نتنبىء بما كان ممكن الحدوث لو اجتنبت

جوزفين قلة الاكتراث ثم تنزهت عن ارتكاب الهفوات والفضائح وسارت على النهج القويم في نفقتها . فقد كان من الممكن المحتمل ان تتوثق عرى الحب بينها وبين نابوليون وان لا ينقلب ذاك الحب الى صداقة ذات شكل خاص ليس بينه وبين الحب الحقيقي مضارعة أو مشاكلة . ولكن شاء حظ جوزفين وحظ نابوليون الذي كان يحلم بالعيشة البيتية الخالصة ان يجري ما جرى ، فيصبح قلب ذاك البطل هدفاً لحب آخر . وان امبراطوراً عظيما وفاتحاً ملأ ذكره البلدان وسجد له ارباب التيجان لا يعدم فتيات من الحسان يتزافن اليه ويضعن جمالهنّ بين يديه . ومما لا ريب فيه أنه لقي فتيات من هذا الطراز فاحبهن واتخذ بعضهن خليلات ، وربما اراد ـ كما قال أحد المؤرخين ـ ان يختبرَ نفسه في فتح القلوب كما خبرها في فتح البلدان . ولكن هناك أمراً يدلنا على اثر تربيته في حضن اسرته وهو انه لم يفعل كما فعل هنري الرابع ، أو فرنسوا الاول ، أو لويس الرابع عشر ، أو لويس الخامس عشر الذين وضعوا الخليلات تحت أنظار الحليلات بل كان يفرغ الجهد في اخفاء علاقته بهنّ عن امرأته الشرعية وحاشيته والسواد الاعظم من الفرنسويين ، وكانت تتعالى نفسه عن قبول أي توسط من أية امرأة سواء كان في السياسة أو توزيع الوظائف والمكافآت

وكانت جوزفين تشتد غيرة عليه وحباً له كلما زاد مجده وسعد جدُّه . فكأنما صوت سري كان يصرخ في آذانها ويحذرها

نتيجة سلوكها الماضي . ولقد أظهرت أشد الغيرة على نابوليون حين رأته يوماً يلاطف مغنية من الاوبرا اسمها مدام برانشو ، مع انها كانت عاطلة من الجمال ليس لهـا من ضروب الجاذبية الا صوتها المطرب البديع . وقيل ان قلبه مال الى فتاة أخرى بارعة الجمال لطيفة الحديث كثيرة اللطائف اسمها « مدامو زايل جورج » احدى الممثلات في مسرح « الـكوميدي فرنسيز » ، وانه التفت بعدئذ الى سيدات الشرف والقارئات الخصيصات في القصر الامبراطوري كمدام فاندي وكانت جميلة ظريفة ، على ان حب نابوليون لها كان قصير الامد . ثم مدام جازاني ولم تستمر علاقته بها اكثر من سنة

ولما سافر نابوليون الى بولونيا وفتحها (سنة ١٨٠٧) استولى القلق الشديد على جوزفين لان شهرة الجمال البولوني كانت تملأ فرنسا في ذاك الوقت ، ولانها كانت تعلم ان قلب زوجها لم يكن كما عهدته في اوائل عهدهما ، فاخذت تكتب الى نابوليون وتطلب اليه بالحاح أن يأذن لها في السفر اليه . فسبحان من يغير ولا يتغير ! ان تلك المرأة التي كانت تختلق الف حيلة لتبقى في باريس ايام كان زوجها يحرز النصر تلوَ النصر في ايطاليا اصبحت تلح على ذاك الزوج وتتضرع اليه ان يسمح لها بالسفر اليه . وروت الدوقة ابرانتيز « ان جوزفين كانت تستطلع بختها في ورق اللعب لترى هل يدل الورق على السفر او عدمه »

اما نابوليون فقد كان في بولونيا كما خافت جوزفين يغازل

البولونيات الجميلات ولا يرتاح الى قدومها . وكان يحاول تخفيف غيرتها وازالة قلقها بارسال الكتب اللطيفة الدالة على الوداد والحب ، ثم يقدم لها أسبابا عديدة ليحول دون قدومها اليه . ومما كتبه اليها قوله « انه كلما عظم المرء زال استقلال ارادته وبات اسير الحوادث والاحوال » . ومنه « انتنّ النساء لا تعرفنَ حواجز ولا موانع . فكل ما تتطلبنهُ يجب ان يتمّ . اما انا فخاضع لطبيعة الامور » . وقس على هذا القول كثيراً من طرازه

فلو كانت جوزفين تسمع مثل هـذا التعلل من نابوليون سنة ١٧٩٦ لطفح قلبها سروراً وفرحا لان كل ما كانت ترجوه وتصبو اليه أن يتركها بعيدة عنه تتمتع بعظمته ومجده في محافل باريس وتغازل من يميل اليه قلبها من الشبان . اما في سنة ١٨٠٦ فان تلك الاعذار كانت تريد شكوكها وتضرم نار غيرتها فتتصور نابوليون في صدور المحافل والانظار شاخصة اليه والحسان متزلفات بين يديه . والواقع ان نابوليون لم يعرف لذة الحب الصافي المتبادل الا في بولونيا حيث قضى مدة من اطيب ايام حياته مع مدام واليسكا . وحكايته مع هذه البولونية الجميلة ان اشراف بولونيا اقاموا له مرقصاً كبيراً حضرته زهرة الشبيبة من اكابر بولونيا فلحظ نابوليون ابان المرقص فتاة جميلة ذات قوام معتدل وبياض ناصع ووجه صبوح تظهر عليه مسحة خفيفة من الحزن الداخلي ، وشعر اشقر يسترسل كخيوط من ذهب . ولقد وصفها نابوليون نفسه بعد معرفتها بانها

ملك يضارع جمال نفسها جمال جسمها

وفي اليوم التالي لذاك المرقص الكبير كان نابوليون مضطربا ـ كما قال كونستان في مذكراته ـ تارة يقعد وتارة يمشي ثم دعا رجلا من كبار حاشيته ورغب اليه ان يذهب في مهمة الى مدام واليسكا ، فرفضت أولاً أن تقبل ما عرضه عليها اما تكبراً وانفة واما دلالا واعتزازاً كما تفعل ذوات الحسن والجمال في مثل تلك الحال

على ان نابوليون لم يقنط بل واصل الالحاح وتمكن بعد قليل من اقناعها بالمجيء فوعدته بالحضور فيما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة مساء . قال كونستان في مذكراته « ان نابوليون كان قُبيل تلك الساعة كتلميذ ضرب أول ميعاد لحبيبته فاخذ قلبه يخفق وصبره ينفد وكان يسأل دائماً عن الساعة . وانه لعلى تلك الحال اذا بالمحبوبة البولونية قادمة اليه صفراء مبللة الجفون بالدموع » ، فصرفت الليلة الاولى ـ على رواية كونستان ـ في كشف اسرارها القلبية واكدارها البيتية . ويظهر ان اهلها زفوها الى رجل من الاشراف طاعن في السن شديد الغيرة مصرّ على سنة التضييق في عاداته وتقاليده ، ولا ريب في انها ما افاضت في هذا الموضوع الا لتظهر وجوه عذرها في طلب العزاء بين ذراعي الحبيب . ونحو الساعة الثانية بعد نصف الليل تركت نابوليون وعيناها تذرفان الدموع ، ثم بقيت توالي زياراتها الى ان سافر الامبراطور لاحقاً بجيشه عازماً على غزو روسيا

وفي تلك الايام تعددت مكاتيب جوزفين في طلب السماح

بالسفر الى مركز نابوليون فكان يجيبها ناصحاً بالعدول عن هذا الغرض ويحاول اقناعها باسباب اخصها بعد المسافة وسوء حالة الجو والمرور ببلدان معادية لها وما شا كلها . ولكن تلك الاقوال لم تخفف من رغبة جوزفين في السفر بل كانت على العكس تفطر قلبها وتحرج صدرها وكثيراً ما كانت تردد الزفرات وتذرف العبرات حتى بلغ نابوليون خبر حزنها فكتب اليها يقول « أطلب منك مشدداً ان تظهري القوة والحزم . لقد اخبروني انك تبكين على الدوام فأف أف . . . ما أقبح عملك ! ان الامبراطورة يجب عليها أن تكون ذات قلب شديد . . . . انا لا أريد أن تبكي او تحزني وتقلقي بل أود أن تكوني على الدوام لطيفة سعيدة . فعودي الى باريس وأبقي فيها طلقة المحيا باسمة الثغر »

« أما قولك « اني اتخذت لي زوجاً لا كون معه » فقد أضحكني جداً لاني أظن على جهلي ان المرأة لرجلها والرجل للوطن والمجد ..»

تلك حالة نابوليون في عهد الهفوات الزوجية . على انه اذا كان يحق لجوزفين أن تشكو وتتألم كزوجة فانها تجد كامبراطورة ما يعزيها في تاريخ ملكات فرنسا . وحسبنا ما فعله لويس الخامس عشر من اعلاء مراتب الحظيات في القصر الملكي نفسه وما أتاه من الفضائح . أجل ان خيانة انسان لا تسوغ خيانة آخر ، ولكن للطبيعة البشرية سلطاناً قوياً في كثير من الاحيان وهو يعظم ويقوى كلما شعر المرء بحاجة الى السلوان والعزاء لهمّ اصابه في بيته وخيبة نالته من محبوبه .

وأفضل ما قيل عن نابوليون في امر الحب انه أخطأ ولكنه كان من أشد المخطئين ميلا الى التستر والمداراة والرغبة في تخفيف ألم تلك التي جرحها هذا الخطأ

ولقد ثبت بالبراهين الدامغة ان حب مدام واليسكا لنابوليون استمر بعد سفره الى معسكر الجيش . وانها لم تزعج نابوليون سحابة ملكه بشيء بل كانت ترعى جانبه وتختار العزلة والتستر . وما كان سرور نابوليون بها من أجل جمالها فقط بل كان هناك سبب آخر أحدث تأثيراً عظيما في الطلاق ، وهو انها حملت من نابوليون فاقتنع حينئذ بأنه قادر على الاستيلاد بعد أن كان يشك في هذا الامر ولا يدري أ كان سبب العقم منه أم من جوزفين

ولما اعتزل نابوليون في جزيرة ألب ذهبت مدام واليسكا الى الجزيرة لتعزيه وتروح قلبه في حين ان العالم كان يعتقد ان نجم نابوليون مال الى الافول . فلا عجب اذا قال فيها البطل الكورسيكي انها ملك كريم لا يشبه جمال نفسها الا جمال جسمها

الفصل الثاني عشر

تقرير الطلاق

رأينا فيما تقدم كيف بدت فكرة الطلاق لنابوليون في جهة العريش بعد ورود الاخبار الفاضحة عن سلوك جوزفين ونحن

مظهرون هنا كيف قويت ونفذت تلك الفكرة بقوة الحوادث نفسها

ان أمر الطلاق بين نابوليون وجوزفين صدر بعد انشاء حكومة « القنصلية » وبعد تعيين نابوليون قنصلا أول سحابة العمر وبعد ارتقائه الى العرش الامبراطوري وسؤدده العظيم . فليفكر القارىء في امبراطور رفع رايته فوق ثلاثين عاصمة كما قال الشاعر وأحرز النصر في كل قطر ورأى ذوي التيجان يتزلفون اليه في كل مكان وأبصر نفسه قادراً على احداث ولي عهد ! ألا يميل به الطمع الانساني الغلاب الى حفظ ذريته ؟

وزد على ما تقدم ان السواد الاعظم من الامة الفرنسوية كان يخاف رجوع الفظائع الداخلية والاخطار الخارجية بعد نابوليون ويطلب دوام سلالته حتى لا يقوم النزاع على الملك يوم يلفظ تلك الروح الكبيرة . وكان جوزيف نفسه اخو نابوليون يحضه على الطلاق وعقد زواج آخر لاجل فرنسا

ومع ذلك كله فان نابوليون قاوم فكرة الطلاق عدة سنين . وكانت جوزفين تدس الدسائس لدى جوزيف لحمله على اقناع نابوليون بالعدول نهائياً عن الطلاق ، وقد قالت له يوماً « ان تقرير نظام الارث يحمل نابوليون على الطلاق والزواج مرة أخرى ليرزق ولداً ، والطلاق لا يبقي لك أملا بالصعود الى عرش فرنسا » ولكن جوزيف لم يقتنع

وفي سنة ١٨٠٤ كان نابوليون نفسه لا يزال متردداً في الامر

بدليل قوله حين ألحوا عليه في طلب الطلاق « انه ليس من العدل أن أطلق . نعم قد يكون من مصلحتي ومصلحة النظام أن أتزوج مرة أخرى ، ولكن كيف تريدون أن أترك تلك المرأة (يعني جوزفين) طلباً للعظمة ؟ لا لا . ان الامر فوق طاقتي ، وان ضلوعي لتنطوي على قلب انسان ، وانّ امي ليست نمرة . . فلا أريد أن أقذف بزوجتي الى الشقاء والبؤس »

أظهر نابوليون هذا الشعور الشريف وأقام عليه خمس سنوات توالت فيها المؤثرات حتى اقتنع بوجوب الطلاق وقرره في ١٥ دسمبر سنة ١٨٠٩

ولما صحت عزيمة نابوليون على الطلاق واقتنع بوجوبه ؛ أراد ان يبلغ خبره الاليم الى جوزفين على يد الكونت لافاليت زوج حفيدتها فقال له « أنا لا اؤمل ان أرزق ولداً منها ولم أبلغ من العمر ما يحول دون حصولي على ولد ، وان راحة فرنسا لتقتضي ان اتخذ لي زوجة أخرى . فانت زوج حفيدتها وهي تحبك وتحترمك فهل لك أن تعد فكرها لقبول الحالة الجديدة التي أوجبتها المقادير ؟ »

فاعتذر الكونت والتمس من الامبراطور ان ينيط تلك المهمة بغيره . وبعد التفكير رأى نابوليون ان يتدرج في ابلاغها الخبر الأليم بلسانه ، فاخذ اولا يوضح لها الضرورات التي تحيق به . قال كونستان في مذكراته « ان الامبراطور توسل الى غرضه بالطف الوسائل وبالغ في مداراتها ومراعاتها حتى أفضى بها الى قبول تلك

التضحيـة الاليمة ». ولقد تباينت أقوال الخصوم المتحاملين على نابوليون في شأن هذا الطلاق فقال بعضهم ان جوزفين خاصمت نابوليون عليه ، ولـكن الشهود العدول وواضعي المذكرات الخاصة لم يذكروا ما يدل على تفاقم النزاع بينهما في هذا الموضوع . وزعم آخرون ان نابوليون استعمل الشدة والقسوة حتى اضطرها الى قبول الطلاق ، على ان بقاء جوزفين في العاصمة والعلاقة الحسنة التي بقيت بينها وبين نابوليون تنفي هذا الزعم ، اذ لو نال جوزفين من الاهانة والقسوة ما عزوه الى نابوليون لابتعدت عن المكان الذي وقعت فيه اهانتها ، ولسافرت على الاقل الى روما حيث كان ابنها اوجين ، أو الى هولاندا حيث كانت ابنتها هورتنس . فجل ما يقـال ان الاتفاق الذي تم بين نابوليون وجوزفين كان موجعاً لقلبها محرجاً لصدرها ولـكنه تم أخيراً بالتراضي وبابقاء جوزفين عزيزة مقيمة في منزل فخم وحاصلة على مودة الامبراطور لدى الجمهور . ومما يؤيد هذا القول ان جوزفين ــ نعم جوزفين نفسها ــ أخذت بعد شهر تهتم هي وابنتها هورتنس بامر زواج نابوليون وفاتحت زوجة البرنس دي مترنيخ النمساوي في أمر الارشيدوقة ابنة امبراطور النمسا ، وليس في هـذا النبأ ريب ولا شبه ريب لانه مثبت في الاوراق الرسمية التي أرسلها مترنيخ من فينا الى سفير النمسا في باريس . ومما كتبه مترنيخ الى السفير قوله « ان الامبراطورة جوزفين وملكة

هولاندا (اي ابنة جوزفين) خاطبا مدام مترنيخ مخاطبة صريحة في الامر ، وصاحب الجلالة الامبراطورية (يعني امبراطور النمسا) يود ان تبقى المسألة جارية في مجرى غير رسمي حتى يتمكن من ابلاغ مقاصده الى الامبراطوار نابوليون بلا تزويق ولا تنميق »

ولا نخال أحداً يعتقد ان جوزفين كانت مجبرة على القيام بمثل ذلك المسعى وان قيامها به لا يدل على التراضي الذي أشرنا اليه كما يدل على اقتناعها بان نابوليون لم يطلقها الا رغبة منه في ولي عهد يرجوه من زواج آخر كما قال كولنكور (وهو سفير فرنسا في بطرسبورج الذي كان يسعى ليعقد زواج نابوليون مع اميرة روسية)

على ان اقتناع جوزفين وموافقتها على الطلاق لم تحل دون اضطرابها الشديد وتشنج أعصابها ساعة ابلغها نابوليون (بعد ذلك الاتفاق) ان توقيع عقد الطلاق الرسمي يتم في ١٥ دسمبر (سنة ١٨٠٩) . قال دي بوسيه الذي حضر ذلك المشهد « تناول الامبراطور فنجان القهوة بعد العشاء و أبدى لنا اشارة تفيد انه يريد البقاء وحده مع الامبراطورة فخرجنا ثم سمعنا الامبراطورة تصرخ صرخات شديدة في الردهة فظن الحاجب أنها أصيبت بضر وحاول أن يفتح الباب فمنعته وقلت له ان الامبراطور لا يلبث أن يدعونا اذا رأى حاجة . وكنت ساعتئذ عند الباب فتقدم نابوليون وفتحه بيده وقال لي « ادخل يا بوسيه واقفل البـاب » فدخلت فاذا الامبراطورة منطرحة على السجادة وهي تشكو وتقول « لا . لا يمكني

أن أعيش بعد هذا » . فقال لي نابوليون « أعندك قوة تمكنك من نقل الامبراطورة الى طبقتها الخاصة من طريق السلم الداخلي لتبذل لها ما تقتضيه حالتها من العناية والاهتمام ؟ » فحملت الامبراطورة بمساعدة الامبراطور بين ذراعيّ وحمل هو مصباحاً وفتح الباب بيده . ولما وصلت الى اوائل درجات السلم قلت للامبراطور « انها ضيقة فلا يمكنني ان انزل بلا خطر من الوقوع » فدعا الامبراطور أحد الخدم ودفع اليه المصباح وحمل معي الامبراطورة من ساقيها بكل عناية ومداراة . وحدث اني خفت تلك الساعة من السقوط فشددت بيدي على الامبراطورة فقالت لي بصوت خفيف « انت تضغطني كثيراً . . . » فادركت حينئذ ان لا خوف على صحتها وانها لم تفقد رشدها دقيقة واحدة . اهـ . » . أما الامبراطور فقد كان اضطرابه وقلقه عظيمين ، وكلماته متقطعة ، وعيناه مغرورقتين بالدموع . على ان هذا المشهد لم يبق اكثر من ثماني دقائق ، وقد أرسل الامبراطور يدعو طبيب القصر والملكة هورتنس (ابنة جوزفين) وكامباسريس مستشار الامبراطورية ، ثم ذهب بنفسه ليرى حالتها فوجدها مائلة الى الهدوء والتجلد ، وما جاء يوم ١٢ دسمبر حتى عادت جوزفين الى حالتها المألوفة ورأست ناديها في قصر التويليري . وبعد ثلاثة أيام كانت تحمل الخطاب الذي طلبوا اليها تلاوته امام الامبراطور ساعة التوقيع الرسمي . وفي مساء ١٥ دسمبر سنة ١٨٠٩ اجتمع اعضاء الاسرة الامبراطورية وعظماء

الدولة فوقع نابوليون وجوزفين امامهم العقد الذي ألغى زواجهما ، وروى مولين « ان الدموع كانت ظاهرة في جفون نابوليون » .

الفصل الثالث عشر

زواج نابوليون وماري لويز

عرف القراء ان غرض نابوليون من زواجه الثاني هو الحصول على سلالة امبراطورية فكان من الواجب الاول ان تكون زوجته الجديدة من خيرة الاسر المالكة واعرقها مجداً في اوربا . وقبل ان يختار الامبراطورة الجديدة جمع مجلس الوزراء وشاورهم في الامر ورغب اليهم ان يختاروا اميرة روسية أو نمساوية أو سكسونية فاظهر معظم الوزراء ارتياحاً الى تزوجه اميرة روسية فكتب نابوليون الى كولنكور سفيره في بطرسبرج يقول « يلزمك في مفاوضة كهذه ان تظهر كل ما عندك من فطنة واحتراس وبراعة . فلا تجازف بكلمة ولا تبد حركة تدل على خفة وفكر ملياً في الامر . انا لا اريد ان أظهر في مظهر من يعرض نفسه ولا أود أن أسمع رفضاً . فابق كرامتي في مرتبة عالية لانها كرامة فرنسا نفسها »

ولما اجتمع مجلس الشيوخ لسماع اعلان الطلاق ألقى أوجين (ابن جوزفين) خطبة قال فيها « يهمنا لسعادة فرنسا ان يبلغ مؤسس الاسرة الرابعة سن الشيخوخة ولديه سلالة تنزل منه مباشرة لان

فيها ضماناً للجميع . . . أما والدتي فحسبها مجداً ما سكبه الامبراطور من الدموع »

ولبث نابليون بعد الطلاق يظهر لجوزفين عطفاً وحنواً، وروى موليين ان نابوليون سافر يوم الطلاق الى تريانون وحده كأنما هو لم يستطع احتمال الوحدة في تلك الليلة بالتويلاري ، وبقي ثلاثة أيام لم يقابل فيها الوزراء والكبراء وقيل ان العواطف لم تتغلب على الاشغال في حياة نابليون الا في تلك الايام الثلاثة . وذكر مينفال ان الامبراطور كتب ليلة وصوله الى تريانون كتاباً رقيقاً الى جوزفين ثم زارها فيما بين ١٥ و١٩ دسمبر أي بعد الفراق بثلاثة أيام وكتب اليها بعد الزيارة « أيتها الصديقة رأيتك أضعف مما يجب ان تكوني . ولقد أظهرت شجاعة فيما مضى ومازال الواجب عليك ان تظهري من الشجاعة والحول ما يأخذ بيدك فلا تسترسلي الى الحزن المشؤوم بل كوني منشرحة الصدر واعتني بصحتك الثمينة . واذا كنت تحبينني حقيقة يجب عليك ان تتذرعي بالقوة والحزم وتكوني قريرة العين .. »

وبلغ عدد المكاتيب التي أرسلها نابوليون الى جوزفين خمسة في عشرة أيام » وفي ٢٥ دسمبر دعاها وابنتها هورتنس الى تناول العشاء على مائدته . وروت « مداموازيل ارفيللون » ان جوزفين أبدت تلك الليلة من الارتياح والانبساط ما يوهم الناظر ان الامبراطور والامبراطورة لم يفترقا »

وبناء على قرار رسمي أبقى نابوليون لجوزفين رتبة امبراطورة

متوجة وعين لها راتباً قدره مليونا فرنك في العام وجعل دفعه اجبارياً على خلفائه ثم زيد هذا المرتب الى ثلاثة ملايين فرنك ماعدا المبالغ الاضافية التي كان يحبوها بها نابوليون

***

تقدم ان نابوليون أمر سفيره في العاصمة الروسية باستطلاع رأي البلاط الروسي في مسألة زواجه فلما فاتح القيصر آنس منه ارتياحاً الى مصاهرة اعظم قائد وأكبر امبراطور ، ولكن القيصر رأى من الحكمة واصالة الرأي ان يؤخر الجزم في الامر ، وكان رأس الاسباب في هذا التأخير ان والدة القيصر كانت مترددة وناظرة بعين الحذر الى اقتران ابنتها بامبراطور الفرنسويين . وقيل ان المسألة الدينية كان لها شأن في ترددها

وليس يصعب على القارىء ان يدرك بالبداهة ما كان لتردد والدة القيصر من الاثر السيء في نفس ذلك الصنديد العنيد الذي كانت اوربا تهتز لخطواته وترقب الدنيا لحظاته ولفتاته . فان عزيمته صحت بلا ابطاء على ترك السعي في بطرسبرج وعلى تحويل فكره الى فينا . ورأى ان خير الطرق ما ينطبق على قول الشاعر العربي

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع امرك

فأخذ يرقب الفرصة حتى عرضت له وقيل بل هو الذي خلقها ومهد طريقها في مرقص اقيم بمنزل المستشار الامبراطوري الاكبر.

وبينما كانت الخدود تنافس الورود ، والخبور يميل بالخصور ، تقدم نابوليون نحو مدام مترنيخ وقال لها بلا مقدمة ولا توطئة « أتظنين ان الارشيدوقة تقبلني زوجاً وان أباها الامبراطور يوافق على الامر ؟ »

فدهشت مدام مترنيخ لتلك المفاجأة وأجابت جواباً مبهماً لانها لم تكن تستطيع الجواب الشافي . فقال لها عندئذ نابوليون « اكتبي الى زوجك واستطلعي رأيه » . ثم تركها مبهوتة ومدهوشة

وفي اليوم التالي بدىء بالمفاوضات وما لبثت ان صارت رسمية بين الفريقين ، وأخذت جوزفين نفسها وابنتها هورتنس تشتركان فيها كما قدمنا . وكان في طليعة الاسباب التي أفضت الى النجاح ان البلاط الامبراطوري في فينا كان شاعراً بما جرى من المفاوضات الاولية في بطرسبرج نخاف ان تؤدي الى نتيجة وان يعقد نابوليون محالفة مع قيصر الروس فيصبح موقف النمسا حرجاً من الوجهة السياسية

ولما تم الرضى اتفق الامبراطوران والحكومتان على ان يوفد نابوليون المارشال برتييه الى فينا ويفوض اليه قبول عقد الزواج بالنيابة عنه ، فسافر برتييه في ٤ مارس سنة ١٨١٠ حاملا الهدايا النفيسة الثمينة للعروس وكانت على رواية البارون بيروس مؤلفة من عقد لا يقل ثمنه عن ٠٠٠ ٩٠٠ فرنك وقرطين قيمتهما ٠٠٠ ٤٠٠ فرنك ورسم لنابوليون مرصع بحجارة من الالماس الخالص لا يقل

ثمنها عن ٦٠٠ ٠٠٠ فرنك مع ان ثروة العروس كلها لم تكن تتجاوز ٥٠٠ ٠٠٠ فرنك

وليس من عادة نابوليون ان يسلك سبيل الاسراف . ولكنه نظر الى الامر بعين الراغب في تعظيم زواجه والمبالغ في اكرام الامبراطورة الجديدة امام العالم

وفي ١١ مارس سنة ١٨١٠ اقيمت حفلة الزفاف في فينا بين مظاهر العظمة والابهة ، وفي ١٤ منه برحت الامبراطورة ماري لويز بلاط أبيها في موكب فخم تحت أمرة البرنس دي نوشاتيل ورافقتها اثنتا عشرة سيدة من سيدات القصر الى برونو حيث كانت تنتظرها ملكة نابولي (اخت نابوليون) واهل البلاط الامبراطوري الجديد . ولما وصل موكب ماري لويز الى برونو حل الفرنسويون محل النمسويين في خدمتها

وقيل ان نابوليون شمخ واعتز يوم الزواج وشعر بما لم يشعر به يوم احرازه أعظم فوز . ولا بدع فان عصامياً يخرج من أصل وضيع ثم يبلغ ذاك المقام الرفيع ويقترن بابنة بيت من أقدم البيوت المالكة في العالم ، لخليق به ان يشعر بتلك العزة والرفعة في مثل ذاك اليوم التاريخي

على ان العوامل القلبية ما لبثت ان تغلبت على تلك العوامل الفكرية فعاد نابوليون كما عرفناه أي ذاك الرجل الملتهب شوقاً الى وصال تلك الفتاة الشريفة التي انصرفت عواطفه اليها والتي تجتاز

الفراسخ والاميال قادمة اليه لتضع نضارتها وجمالها بين يديه وليس يدلنا على قوة ذاك الشعور مثل ما كتبته الملكة كارينا من باريس الى أبيها ملك ورتمبورج . قالت في أحد مكاتيبها « لا يمكنك ان تتصور مبلغ اهتمام الامبراطور بزوجته المقبلة . وحسبي ان اخبرك بانه دعا اليه الخياط وأمره بان يتقن له صنع الملابس وأخذ من جهة اخرى يتعلم الرقص : أمر لم يكن يخطر ببالك ولا ببالي »

وكتبت أيضاً « لا يمكنني أيها الاب العزيز ان اخبرك عن مبلغ حب الامبراطور لزوجته فانه متشوق ومتحمس الى حد لم أكن اتصوره ولا استطيع وصفه . . . »

وكان من همّ نابوليون ان يؤتى فتحاً جديداً في الحب كما اوتي في ميادين الحرب فأخذ يبذل الجهد في استنباط ما يجعل ماري لويز تقتنع بحبه لها وما يجعلها تحبه

اما كيفية تلاقيهما فقد كان موضوع جدال طويل وبحث ضاف بين نابوليون وسفير النمسا لان البلاط النمسوي معروف باصراره على التقاليد الامبراطورية . ولا يعرف مبلغ التعب الذي يلاقيه واضع مثل ذاك الترتيب الا من يعرف شدة حرص البيوت المالكة القديمة على تقاليدها . وحسبنا ان نذكر للقارىء هنا انهم اضطروا الى مراجعة الكتب القديمة الهاجعة في مكتبة البلاط النمسوي والى درس كل ما يتعلق بالحفلات السالفة وبعد أن أخذوا منها ما يجب أخذه بدأ السفير النمسوي يباحث الامبراطور نابوليون

ويتفق معه على كل نقطة وكل وجه . وكان من جملة ما تم الاتفاق عليه يوم التلاقي أن يقام سرادقان كبيران احدهما للامبراطور والثاني للامبراطورة ثم يقام سرداق ثالث بينهما فيتقدم كل من الامبراطور والامبراطورة اليه ثم تقف الامبراطورة في مربع وتنحني أمام نابوليون فيتقدم وينهض بها ثم يقبلها ويذهب معها الى مركبة فاخرة ذات ستة مقاعد فيصعدان اليها ثم تجلس الاميرات معهما . وكل من علم باهتمام نابوليون وسفير النمسا بوضع تلك الخطة لم يبق عنده ريب في ان نابوليون كان عازماً على التدقيق في اتباعها كما دقق في وضعها ، وان القبلة الاولى التي كان امبراطور الفرنسويين ينتظرها من كريمة امبراطور النمسويين لا تؤخذ الا بعد شيء من العناء

على ان طبيعة نابوليون التي عرفناها لم تكن مما يقف امامها تقاليد و نظامات من ذلك الطراز فانه ما علم بسفر عروسه من فيتري الى سواسون حتى ركب هو وملك نابولي مركبة واحدة وسافر متستراً بلا خدم ولا حاشية ، وما وصل الى كورسيل حتى رأى موكب الامبراطورة قادماً فصعد الى مركبتها دون أن يعرفه أحد سوى خادم الشرف فصاح « الامبراطور . . »

بيدَ ان نابوليون كان مشغولاً في تلك الساعة بمعانقة ماري لويز ، وبعد ان تمّ هـذا المشهد الذي ادهش الامبراطورة أمر نابوليون بالاسراع نحو كومبيين فوصل اليها الساعة العاشرة مساءً .

وما أشد عجب الموكلين بتنفيذ النظام حين مرت المركبة الامبراطورية مرّ النسيم أمام المضارب الثلاثة التي كانت معدة لها !...

وبينما كان الامبراطور والامبراطورة وأهل القصر الامبراطوري يتناولون العشاء في ردهة الملك فرنسوا الاول في كومبيين — وكأني بنابوليون اراد أن يكون تلك الليلة تحت رعاية روح ذاك الملك الذي اشتهر بحب الغواني — اخذت عينا نابوليون تنظران الى ماري لويز نظرة المتوسل المتضرع وقال للكردينال فيش « أليس بصحيح اننا متزوجان الآن ؟ » فاجاب الكردينال من غير أن يفكر في نتيجة جوابه « نعم انكما متزوجان زواجاً مدنياً » . أما ماري لويز فقد أصبح وجهها كالوردة الزاهية عند هذا الكلام ، وزاد عجبها لما أظهره نابوليون من قلة الاهتمام بما وُضع من الترتيب والنظام . على انها لم تستطع ان تخالف نابوليون فبقي القصر الذي كان معداً لمنامها تلك الليلة خالياً من ضيفته الكريمة

أليس هذا التسرع دليلاً كافياً على ان طبيعة نابوليون في سنة ١٨١٠ هي تلك الطبيعة التي بدت لجوزفين سنة ١٧٨٩ ؟ ان نابوليون كما تقدم عقد زواجه لاجل الذرية وقام في ذهنه على ما قيل ان ماري لويز قدمت نفسها ضحية لسياسة دولتها فاراد ان يطيب نفسها ويعزي قلبها بكل ما وجد اليه سبيلا ، واخذ يظهر لها ما تحلم به وتؤمله الفتيات العذارى قبل زواجهن . ولما كانت طبيعته على ماوصفنا لم يلبث ان صار محباً بالمعنى الصحيح عندما رأى تلك الاميرة

السنية لينة العريكة نضيرة الشباب مجردة من الارادة بين يديه

ولقد كان المظنون ان حماسة نابوليون تنطفىء بعد حين فيعود الى اختيار العلاقات المعتادة بين ذوي التيجان وحليلاتهم وهي على وجه عام لا تخلو من التحفظ والتكلف في معظم الاسر المالكة. على ان نابولون لم يكن من تلك الطينة بل كان يرمي قبل كل شيء الى تأسيس بيت يسود فيه الحب وتعم الراحة. ولقد ساعدته ماري لويز بما اظهرت من سلاسة القيادة وسهولة الخلق فكانت عيشتها راضية رغيدة، وليس ما قاله خصوم نابوليون عن « سوء معاملتها » الا ضرباً من الاختلاق قصدوا به ان ينتحلوا لها عذراً عن خيانتها لذاك الرجل العظيم بعد ما اصابه من الفشل في معركة واترلو بسبب تقصير أحد قواده. ولا يدلنا على حالة ماري لويز مع نابوليون مثل الكتب التي بعثت بها الى اثنتين من أحب الناس اليها وأصدقهم ولاء لها، وهما الكونتس كولوريد والكونتس كرينفيل. واليك شيئاً مما ذكرته لهما بعد وصولها الى كومبيين بشهر « ان الله استجاب دعاءكما يوم زواجي، فعسى ان تنالا من السعادة ما اشعر به »

« ثم كتبت في يناير سنة ١٨١١ « لا يسعني ان اتمنى لك شيئاً أفضل من السعادة التي أتمتع بها . . . يمكنك ان تتصوري اننا لا نعدم ملاهي وملذات في مدينة عظيمة كباريس ولكن الساعات التي أقضيها مع الامبراطور هي أحب الاوقات اليّ وأطيبها لديّ »

ثم كتبت في مايو سنة ١٨١١ « أرجو أن يصنع ابني (ملك

روما) صنيع أبيه فيسعد كل من يعرفه ويقترب منه . . . »

ثم كتبت في ١١ يونيو من تلك السنة « ان حزني لمفارقة نابوليون يكدر صفاء السعادة التي أتمتع بها في عيلتي ، فانا لا أستطيع ان اكون مسرورة سعيدة الا اذا كنت على مقربة منه . . . »

وكتبت بعد أيام « لا يسعني أن اكون قريرة العين مستريحة البال الا حين أرى الامبراطور . فالله أسأل أن يقيك مثل هذا الفراق فانه شديد أليم على القلب المحب . . . »

وقالت في اكتوبر من السنة نفسها « ان اليأس ينزل بقلبي اذا مر يوم واحد ولم يرد عليّ كتاب من الامبراطور . وكلما وصل منه كتاب شعرت ببعض التعزية ولكن الى حين . . . »

وكتبت في ٢ اكتوبر « لي أمنية واحدة أسأل الله تحقيقها في وقت قريب هي عودة الامبراطور فان وجود ابني نفسه لا يسليني ساعة واحدة عن أبيه . . . »

وكتبت في ٢٣ يوليو سنة ١٨١٣ « اني مسافرة الى ما يانس لارى الامبراطور ، وانه لمن السهل عليك ان تدركي مبلغ فرحي بدون أن أشرحه لك . . . »

فاي منصف يطلع على تلك المكاتيب التي أرسلتها ماري لويز في تواريخ متباينة لاثنتين من رفيقات الصبا والصديقات الحميمات ثم يسعه ان يأخذ أقوال أولئك الخصوم على علاتها ؟ ان ماري لويز لو كانت سيئة الطالع متحرجة الصدر متشوقة الى الخلاص من

نابوليون وكانت تحذر مغبة التأفف والطعن عليه ـ لو كانت في مثل هذا المأزق الاليم لاختارت طريق الصبر الجميل وامتنعت عن المبالغة في شرح الاشواق

ولما شاع خبر وفاة نابوليون وانتهى الى مسامع ماري لويز قالت « ان الامبراطور نابليون لم يكن يسيء معاملتي بل كان على العكس يظهر لي كل اكرام واعزاز . . . » قالت ماري لويز هذا القول الحق بعد ان عشقت الجنرال ادام ادالبير ذيالك الجنرال النمسوي الاعور الذي لم يتفوق بشيء من اعمال الرجال في ميادين القتال ، وبعد ان رزقت منه ولداً قبل وفاة بطل اوسترليتز . فلو كان نابوليون شريراً في سلوكه معها كما قيل لما شهدت له تلك الشهاده المأثورة ولا سيما ان مصلحتها كانت تدعوها الى قلب الحقيقة لتخفف من شناعة الخيانة التي اقترفتها بعد فشل نابوليون

واذا صح ان ماري لويز قالت بعد زواجها الثاني « انى لم اكن أشعر بحب شديد لنابوليون » . فان هذا القول لا يكفي لتكذيب الرسائل التي ذكرنا بعض فقراتها ، ولا يحمل الا على محمل واحد هو رغبة ماري لويز في مداراة الجنرال الوضيع الذي اتخذته حبيباً ثم زوجاً

واذا رجعنا الى المذكرات التي وضعها الاحباء والاعداء وجدنا فيها دليلا على مبالغة نابوليون في اكرام ماري لويز . قال كولنكوز (الذي كان سفيراً في بطرسبرج) « ان نابوليون كان يعني عناية

شديدة بزوجته الشابة القليلة الشأن (الامبراطورة ماري لويز) وكان يشملها بنظرات الحب والسرور ويفاخر باظهارها لكل انسان في كل مكان » وذكرت قرينة الجنرال دوران كبيرة سيدات الشرف لدى الامبراطورة « ان الامبراطور نابوليون قضى الاشهر الثلاثة الاولى لزواجه ملازماً للامبراطورة لا يفارقها ليلا ولا نهاراً، واذا تركها سويعات قليلة فللقيام باشغال مستعجلة » وقال شامباني «ان نابوليون كان أفضل زوج في العالم وليس في وسع أحد أن يظهر من العناية ورقة المعاملة وكرم النفس اكثر مما أظهره نابوليون . . »

وكان ذلك الرجل الشديد الفخور يتوسل بكل وسيلة ليعرف هل كانت ماري لويز سعيدة حقيقة أو كان لديها ما تشكو منه وبلغ منه حب الاستطلاع مرة أن قال للبرنس مترنيخ وهو عند ماري لويز « أريد أن تحدثك الامبراطورة بحرية تامة وأن تطلعك على فكرها الخاص في شأن مركزها الجديد . . . . انت صديق لها فالواجب ان لا تخفي عنك شيئاً »

وفي اليوم التالي لقي البرنس وسأله « ماذا قالت لك الامبراطورة أمس ؟ » ثم عاجله قبل أن يجيب بقوله « قالت لك انها سعيدة معي وانها لا تشكو شيئاً . فآمل أن تخبر امبراطورك بذلك . . . »

الفصل الرابع عشر

ولادة ملك روما

وليس في وسع قلم أن يصف ما داخل نابوليون من السرور حين علم بعد ثلاثة أشهر لزواجه ان الامبراطورة تشعر بدلائل الحمل . ولقد طفحت كأس حبوره وابتهاجه حين ولدت له ولداً ذكراً

فيا لله ما اعظم ذاك الحلم وما أجمل تحقيقه ! ان ذاك الطالب الذي تعلم على نفقة الحكومة وذاك الضابط الذي كان يحرم نفسه من الجلوس في القهوة ليساعد أمه واخوته ؛ سيكون له سلالة لحكم أعظم امبراطورية !

ولكن يد الدهر ظهرت كأنها تنازع نابوليون السعادة في تلك الساعة لان ولادة ابنه كانت صعبة أليمة حتى خاف الدكتور ديبوا (الطبيب المولد) على حياة الام أو حياة الولد وسأل حينئذ نابوليون « بحياة أيهما نضحي اذا قضت الضرورة ؟ » فاجابه نابوليون بلا تردد « لا تفكر الا في الام »

فلو كان الطمع الاشعبي يضرب على قلب نابوليون عشاوة كثيفة كما قال بعض خصومه لفضل حياة ابنه وولي عهده على حياة ماري لويز ولكن قلب الزوج تغلب على قلب الامبراطور في ذاك الموقف الحرج فوضع حياة زوجته فوق حياة ابنه وفلذة كبده

ولما ذهب نابوليون الى غرفة التوليد ورأى عذاب الامبراطورة أخذ بيدها وصار يشجعها ولكن ظهور الطفل معترضاً اقتضى عملية صعبة ، ولشدة التأثر الذي أصاب نابوليون ساعة العملية ترك يد الامبراطورة ودخل غرفة أخرى ووجهه ممتقع أصفر وفكره حائر مضطرب . ونحو الساعة الثامنة صباحاً (من ٢٠ مارس سنة ١٨١١) طارت البشرى الى نابوليون بنجاة الام فأسرع يقبلها ويضمها الى قلبه . ثم التفت الى الولد فاذا هو جامد لا يبدي حراكا فألقى عليه نظرة الآسف الكاسف وعاد يهتم بصحة الامبراطورة . ولكن الطفل ما لبث ان صرخ صرخة اهتز لها قلب أبيه فاسرع اليه وأخذ يقبل خديه وعينيه

وكان جمهور عظيم من الباريسيين مجتمعاً في حديقة التويلري ينتظر خبر نجاة الامبراطورة ، وصدر الامر باطلاق واحد وعشرين مدفعاً اذا رزق نابوليون بنتاً ومئة مدفع اذا رزق ولداً . فما دوى المدفع الثاني والعشرين حتى هتف الجمهور هتافاً شق عنان السماء ، فوقف نابوليون وراء ستار وأخذ يمتع نظره برؤية ذاك الجمع السكران بخمرة الطرب وسالت دموع الفرح على خديه وهو لا يدري ان الدهر نوى أن لا يسمح له بعد ذاك اليوم ان يذرف دموع الفرح ، وانه قام يريه مقدمات الزوبعة الهائلة التي قذفت به الى ما وراء

الاوقيانوس حيث لفظ الروح في جزيرة جرداء محروماً من رؤية زوجه وابنه ومن السلطة والحرية

أما تأثير ولادة « ملك روما » في سائر أنحاء أوربا فقد كان عظيما جداً ، وأخذ الشعراء على اختلاف الطبقات يتغنون بوصف ذاك الحادث الخطير ويهنئون نابوليون فكانت القصائد تنشر بكل لغة حتى اللغة اليونانية واللاتينية

أما حياة نابوليون في بيته بعد ولادة ابنه فقد زادت رونقاً وسناء قال منيفال في مذكراته « ان نابوليون أصدر أمراً مطلقاً بمنع الدخول الى مكتبه ورجا من الامبراطورة نفسها ان تدخل عليه بابنه بدلا من المرضع ، وكان ينتظرها عند الباب فيتناول منها ابنه وينهال عليه بالقبلات . . . واذا أراد أن يوقع تلغرافاً هاماً مما يجب عليه ان يزن كل كلمة من كلماته ، وضع ابنه على ركبتيه او ضمه الى صدره . وكان يتفق له أن يدع التفكير في الامور الخطيرة وينطرح على الارض بجانب ابنه العزيز يعمل ما يسره ويجتنب مايعاكسه ويلعب معه . . . »

وقال كونستان في مذكراته « ان الامبراطور نابوليون كان يحب ابنه أشد حب فلا يراه مرة حتى يأخذه بين ذراعيه أو ينهض به من الارض ثم يعيده اليها وكان يسر أبلغ سرور حين يراه ضاحكا مبتهجاً . وكثيراً ما كان يعاكسه . ويقف به امام مرآة ثم يكشر له ويبدي من الاشارات والحركات ما كان يجعل الطفل يغرب في

الضحك حتى ينزف دموع السرور . واذا جلس لتناول الطعام أجلسه على ركبتيه وغمس أصبعه بالمرق ولطخ به وجهه »

وكان اذا سافر كتب الى مربيته مدام مونتسكيو يسألها عنه ويبدي لها ما يخطر له . ولما كان زاحفاً الى روسيا سنة ١٨١٢ كتب اليها يقول :

« آمل أن تخبريني في وقت قريب بظهور أسنانه الاربع الاخيرة . أما المرضع فقد منحتها كل ما طلبت . . . »

ولما تلقى رسم ابنه قبيل معركة موسكوفا أظهر ارتياحاً كبيراً الى وصوله وشكر للامبراطورة ارساله ثم وقف به عند باب سرادقه فاخذ يتأمله والجنود تهتف له ولكن غيمة من القلق ما لبثت ان بدت في سماء فكره فدفع الرسم الى سكرتيره قائلا « اذهب به فانه يرى ميدان القتال قبل الاوان . . . »

فانت ترى ان قيادة الجيش الاكبر الذي كان تحت أمرته في تلك الحملة التاريخية على روسيا ، ومشاغل الخطة الصعبة التي كان يضعها ، والمفاوضات التاريخية التي كانت جارية — كل ذلك لم يكن يصرف فكره عن ابنه الحبيب وعزيزته « لويز »

ولعل القارىء يقول مسائلا « ان نابوليون كان يهتم بملك روما وماري لويز وهو في شرفة العز والمجد فكيف صارت حاله عند ما بدت دلائل الشؤم ابان تلك الحملة ؟ ان حاله مع ابنه وزوجته لم تتغير فقد بقي يفكر فيهما وينتبه لاصغر شؤونهما ويعنى براحتهما مع كل

المصائب الفادحة التي كانت تدور به من كل صوب. وهاك بعض ما كتبه لـكامباسريس المستشار الامبراطوري الاكبر سنة ١٩١٣ أي بعد نزول نازلة روسيا على رأسه « يجب على الوزراء ان لا يخبروا الامبراطورة بما يحدث لها قلقاً أو حزناً » وكتب الى مربية ابنه بعد معركة درسد « يسرني ان ابني ما برح يزداد نمواً فيزيدنا آمالا ولا يسعني الا اظهار الرضى والارتياح الى عنايتك به »

وكان شوق نابوليون الى رؤية زوجته أيام تلك الحرب الهائلة شديداً حاراً ، فرغب اليها ان تلاقيه في مدينة مايانس فسافرت اليها في ٢٦ يوليو من ذلك العام ، وذكر كولنكور تلاقيهما فقال « ان نابوليون حدثني عن هذا التلاقي فاظهر تحمس الشباب وبرقت اسرته فلم أعد أرى عليه ما ظهر لي في أول الحديث من دلائل الهم والقلق والتأثر »

ولما خاب أمل نابوليون بالسلام ، وعقدت دول اوربا العظمى تحالفاً آخر لمقاتلته بعد الحرب الروسية بقي يهتم باقل الاشياء المتعلقة بماري لويز. ومما كتبه يوماً « لقد ساءني ان ترتيب حفلة ١٥ اغسطس كان مختلا، وان الامبراطورة بقيت حيناً طويلا وهي تسمع موسيقى تمجها الآذان »

ولما قامت بعدئذ المعارك الشهيرة المعروفة « بحرب فرنسا » وظهر نبوغ نابوليون في اعظم مظاهره فقاوم اوربا كلها بثلاثين الف رجل ، كان نابوليون مع ذلك الموقف الهائل يفكر في عزيزته (لويز)

لقد كتب يقول « نزهوا خاطر الامبراطورة فهي تذوب كمداً ... »
ثم كتب بعد ان ساء طالعه « لا تدعوا الامبراطورة وملك روما يقعان في قبضة العدو. فأنا افضل ان يذبح ابني على ان يربى في بلاط النمسا كأمير نمساوي ؛ وأظن ان الامبراطورة على هذا الرأي »

وكان نابوليون يضع راحته البيتية وكرامته الشخصية فوق كل شيء بدليل ما كتبه في ابان تلك الحوادث الجلى قال « اياكم والاقوال التي يؤخذ منها اني اطلب حماية الامبراطورة او حماية أبيها فانها تكدر صفاء راحتها وتفسد جميل خلقها . . »

وبعد ان استنفد نابوليون كل مواهبه ومعارفه الحربيـة في قتال عدو كان اضعاف أضعاف رجاله ، وبعد ان خذله جماعة من كبار قواده فاضطر الى التنازل في مونتبلو ، لم يبق له من تعزية الا التفكير في زوجته وابنه . وعند سفره الى جزيرة ألب قال لأمينه « يمكنني ان اعيش سعيداً مع ابني وزوجتي في تلك الجزيرة » .
وعلى أثر توديعه للحرس ، ذاك التوديع المشهور الخالد ، كتب الى ماري لويز يقول « أيتها الصديقة ، اني سأقضي الليـل في بريار ثم اسافر غداً الى سان ترويز . فآمل ان تساعدك صحتك على الصبر والتجلد وان تتمكني من المجيء الي . . .
« اودعك أيتها العزيزة ويمكنك ان تعتمدي دائماً على زوجك وشجاعته وسكون جأشه وصداقته لك »

الفصل الخامس عشر

خيانة ماري لويز

على انه مضى زمن بعد وصوله الى تلك الجزيرة ولم يتلق خبراً من ماري لويز فداخله القلق والعجب ، ولـكن مظنة الخيانة لم تخطر بباله . وفي ٢٠ اغسـطس كتب الى الجنرال برتران يقول « اني انتظر وصول الامبراطورة في شهر سبتمبر » ، ثم كتب الى آخرين وتوسل بجملة من الوسائل ليحمل ماري لويز على مراسلته والحضور اليه فلم يفلح . وكان من جملة تلك الوسائل انه كتب في اكتوبر من ذلك العام الى دوق توسكانا خال ماري لويز يسأله في ان يكون واسطة في ايصال رسائله الى ماري لويز . فيا لله من كيد الزمان ! ان الامبراطور العظيم الذي كانت الملوك والامبراطرة تتزلف اليه والشعوب تهتف له وتحني الرؤوس بين يديه ، بات يرجو من دوق صغير ان يكون واسطه بينه وبين زوجته !

وبينما كانت عوامل القلق والشوق تتنازع نابوليون الى ذلك الحد ، كانت ماري لويز تظهر قلة الاكتراث لمصابه ، وتجتنب كل ما تظنه مخالفاً لميل أبيها ، وكان من جهة أخرى الجنرال نيبرج الاعور يشاغلها ويحاول القبض على مفتاح قلبها . وقيل انها أخذت تنقاد اليه منذ ١٧ يوليو سـنة ١٨١٤ . وكان الحزن يساور قلب نابوليون كلما طال الزمن على انقطاع المراسلة بينه وبين تلك المرأة

التي ظنّها حليلة أمينة . وانه لعلى تلك الحال اذا بالبولونية الحسناء قادمة الى الجزيرة تحمل اليه حبها وعطفها الصادق فكان سناؤها نوراً بين ظلمات الاحزان التي كانت تحيق بالاسد المعتزل ، الا انها لم تقم اكثر من ثلاثة أيام في الجزيرة ولم يلبث نابوليون ان عاد الى ظلمة العزلة

ولما ترك نابوليون الجزيرة وعاد الى وطنه على الرغم من خصومه واسترجع سدته العالية ، كتب الى امبراطور النمسا يطنب في حبه لاسرته ويلتمس منه أن يسارع الى اعادة زوجته وابنه اليه

ولكن فساد قلب تلك الزوجة بلغ حداً قصياً فباتت لا تعبأ بالالسنة اللاذعة التي تناولت عرضها . واذا استطلعنا أعماق قلبها بما كتبته الى أخصائها ايام كان الحلفاء يزحفون على فرنسا والفوز معقود بلوائهم ، رأيناها لا تشعر شعور امبراطورة الفرنسويين بل تحس احساس أميرة نمساوية عدوة لفرنسا . قالت في كتاب خاص يوم تقدمت جنود المتحالفين في بلاد فرنسا « مضى ثمانية عشر يوماً ولم يرد عليّ خبر من الجنرال نيبرج ولم أعرف الا ما تضمنته النشرة الرسمية من التفصيل ، على اني مبتهجة مع الجميع بالاخبار الحسنة التي تتضمنها (كذا) »

فليفكر القارىء في تلك الامبراطورة التي « ابتهجت بالاخبار الحسنة » أي اخبار تفوّق الاعداء بكثرة عددهم وعُددهم ، على ذلك البطل التي نعمت بنعمائه وعزت بعزه وحسدتها أمبراطورات

الخافقين على مكانتها لديه . ولا نظن ان أهل المروءة يخففون جريمة تلك المرأة بزعم ان الغرام ضرب على قلبها غشاوة منذ أحبت ذاك الجنرال الاعور . لان الحب لا ينفي عاطفة الشفقة والانفة . وأقل ما يدل عليه تمنيها لكسر نابوليون هو انها جمعت بين الخيانة والنذالة والخباثة

* * *

رأينا أن دور نابوليون بوصفه زوجاً ورباً لعيلة ابتدأ أيام نصره الباهر في ايطاليا وانتهى يوم كسره القاهر في واترلو . ، ورأينا أنه تزوج امرأتين وان الاثنتين خانتاه ، ولكن الفرق بين جوزفين وماري لويز ان الاولى خانته بعد زواجه بقليل والثانية كانت تعرف كيف تخفي لؤمها ونذالتها ومالت اليه حيناً من الزمن لفرط اهتمامه براحتها واسعادها ثم استرسلت الى سجيتها الطبيعية حين فشل زوجها وأمنت هيبته وسطوته . ثم رأينا ان نابوليون كان مع هذا كله لا يستسهل تصديق ما قيل له عن جوزفين أو ماري لويز بل كان يحسب مظاهر الخيانة التي بدت من جوزفين خفة مجردة، ويظن ان ماري لويز كانت ضحية أيام غيابه في جزيرة ألب ، ويجتنب كل أمر يكدر صفاء راحته البيتية . وما كانت عظمة النجاح وعزة الملك تؤثران في مهمته الزوجية والابوية ، وتصرفاته عن القواعد التي تلقاها في عهد تربيته الاولى

على ان نكد الدنيا شاء له أن لا يستريح في بيته الا أحياناً

متقطعة وأن يأتيه الحب الصادق من قلب شريفة بولونية كانت محرومة من لذة الحب الصحيح في بيتها

الفصل السادس عشر

أخلاق نابوليون

اتضح لنا فيما تقدم جانب من أخلاق نابوليون فرأينا ما كان من حبه لامه واخوته ومن ضعف ارادته وتسامحه وخوفه من الحقيقة أيام حبه لجوزفين ، ومن تفانيه في ارضاء ماري لويز لحملها على حبه . كما رأينا تنزه نفسه عن الضغينة والحقد على اناس من الذين أساءوا اليه قبل صعوده الى قمة شاهقة من العز والمجد . ونحن ناظرون في الجانب الآخر من تلك الاخلاق

قال كثيرون من المتحاملين على نابوليون وفي جملتهم الكاتب العالم تين « ان نابوليون كان خشن الطبع فظ الخلق لم يذق المقربون اليه شيئاً من حلاوة اللسان وطيب المعاشرة » وقال اليزون في تاريخ اوربا « انه لما ابلغ اللورد ويتورث سفير انكلترا نابليون ان حكومته تعد معاهدة اميان باطلة غضب غضباً شديداً وخرج عن صوابه الى حد ان رفع يده ليضرب السفير » . ثم تناول الناس هـذا الخبر دليلا على شراسة نابوليون وتلقفه الخلف عن السلف من المؤرخين . وبعد تسعين سنة خطر للمستر اوسكار برونن ان يراجع مستندات

الحكومة البريطانية وينظر في قيمة تلك التهمة فانتهى به البحث والتدقيق الى تقرير الحقيقة الآتية وهي « ان ما قيل عار عن الصحة وان تلغرافات السفير الانكليزي نفسه تدل على بطلانه » فسقط من ذاك الحين كل ما بناه خصوم نابوليون من المطاعن والمثالب على ذاك الخبر الملفق . أجل ان نابوليون كان مثل الذين كثرت شواغلهم وهمومهم ينفر من الابطاء المضر والتثاقل المبرم في بعض الاوقات . ولكن بين قلة الجلد في بعض المواقف وشراسة الطبع التي تحول دون كل معاشرة شقة واسعة من الفرق

وليس هناك ريب في ان شراسة الطبع بالمعنى الصحيح تحول دون الخلق الكريم والوداد المقيم وتنكص بالمرء عن احترام النواميس الاجتماعية والواقع ان معاملة نابوليون لامه واخوته حتى كان يحرم نفسه من الجلوس في القهوة ليتمكن من اعانتهم ثم احتفاظه بصداقة الذين عرفهم في عهد الصبا مثل بوريين وجونو ومارمون وغيرهم من الذين عينهم في وظائف مختلفة ونهض بهم في مدارج الرقي — كل ذلك يبطل ما زعمه الخصوم

واذا نظرنا من جهة اخرى الى وزرائه وجدنا مدة أكثرهم أطول من مدة الوزراء الذين استوزرهم أي ملك أو امبراطور آخر . ولقد دلنا التاريخ على ان معظمهم كانوا من الاكفاء وليسوا من الذين فنيت عزة نفوسهم وألفوا اللطم كما زعم بعض الكتاب

ولو كان نابوليون متصفاً بطبع وحشي كما زعم خصومه ومشهور

يمثل هذا العيب الفاضح لما رضي امبراطور النمسا ان يزف اليه ابنته.
فان الغرض السياسي الذي كان يرمي اليه الامبراطور فرنسوا لم يكن
وحده كافياً للتضحية بابنته ، وما كان العيب الاكبر الذي رُمي
به هذا الامبراطور التجرد من العواطف البشرية والوالدية . بل
كان الضعف السياسي الذي جعله آلة بين يدي وزيره مترنيخ .
ومهما يكن من أمر ضعفه فهو لا يذهب بالحنان الابوي . وزد على
هذا كله ان الرسائل التي بعثت بها ابنته ماري لويز وذكرنا بعض
فقراتها فيما تقدم تكفي للدلالة على أنها بين يدي انسان لا بين
مخالب حيوان

وكان نابوليون يعد الحسنات من الاعمال الخالدة كالانتصارات
بدليل ما قاله عن الملوك وذوي التيجان الذين سموه مغتصباً بعد
اعتزاله في جزيرة ألب « ان هؤلاء الملوك يلقبونني اليوم بالمغتصب
بعد ان ارسلوا الي السفراء الرسميين مع الاجلال والاحترام وبعد
أن وضعوا في سريري ابنة منهم ، وبعد ان دعوني أخاً لهم فهم
أرادوا ان يبصقوا عليَّ فبصقوا على وجوههم وحقروا « جلالتهم »
ألا ما هي قيمة لقب « امبراطور » ؟ انه اذا لم يكن لي غير هذا
اللقب لدى الذرية لهزأت بي ولكن لي النظامات التي وضعتها
والحسنات التي صنعتها ، والمعاهد التي شيدتها ، والانتصارات
التي أحرزتها : تلك هي القاب المجد »

واذا رجعنا الى اقوال المعاصرين له وجدنا فيها براهين دامغة

على تحامل خصومه قال شاتوبريان « غشيني بونابرت بمظهر بسيط ثم أخذ بلا توطئة ولا اسئلة عقيمة يحدثني عن مصر والعرب كأنني صديق حميم وكانما حديثنا كان تتمة لحديث سابق »

وقال كوتزبو في « مذكرات باريس » ان نابوليون « كان يبتسم لمحدثيه ابتسامة لطيفة تجعل ثغره مستحباً جداً وتبعث الثقة في نفس السامع . فقد اقترب مني يوماً بمنتهى اللطف وأخذ يحدثني عن مسارح التمثيل بلا تكلف . وهو يفضل من الروايات المأساة (التراجيديا) . . . ثم ختم حديثه بأن جميع أنواع الروايات حسنة مقبولة بشرط ان لا تورث الملل »

وقال لومبار الذي كان مستشاراً خاصاً لملك بروسيا سنة ١٨٠٣ « ان الاجانب مخطئون بقولهم ان طبع نابوليون شديد فظ وانه متسرع في احكامه . فالواقع أنه يبدو هادئاً ساكن الجأش عند المناقشة ويعير محدثيه اذناً صاغية ونفساً واعية كأنه يريد أن يتعلم منهم ، ولا يسوءه ان يسمع معارضة »

وكتب اجنبي آخر وهو المسيو جان دي مولر « اني كنت أعارض نابوليون فيعمد الى مناقشتي . وأرى من الواجب عليّ ان أقول بكل اخلاص وبلا تحزب كما لو قمت أشهد لدى الله تعالى ان اسلوب حديثه كان يملأ نفسي اعجاباً به وحباً له . وان ذلك اليوم الذي قابلت فيه نابوليون كان أفضل أيام حياتي ، فقد تملكني بنبوغه وطيبة نفسه »

وكان من اخلاق نابوليون ما ذكره المسيو دي سيجو الذي عاش على مقربة منه وعرف كنه حياته . قال « انه كان يصنع الخير مع الافراد الذين اخنى عليهم الدهر ويظهر اللطف والرقة ويتبع سبيل الاقتصاد والبساطة في بيته ولا يحرم الذين كانوا حوله من وده وحبه » . وقال الجنرال راب « اني لم أرَ أحداً أرق شعوراً وأثبت على الحب والوداد من نابوليون » واذا أراد القارىء شهادات اخرى من هذا الطراز فليراجع كتاب المسيو ارتور ليفي الذي أشرنا اليه في المقدمة

فحسبنا ما تقدم من شهادات الفرنسويين والاجانب لنظهر ان الذين أسعدهم الحظ بمعاشرة نابوليون أو الاقتراب منه أو التناقش معه لم يكونوا يرون امامهم وحشاً من ضواري الحيوان في صورة انسان كما زعم الذين أعماهم الحقد والعدوان

الفصل السابع عشر

نابوليون وجنوده

وكان نابوليون شديد الانتباه الى أصاغر جنوده لاعتقاده ان الجندي الصغير قد يكون ذا قلب كبير ، وان حسن المعاملة مدعاة لزيادة الاخلاص ، قال دوق فيسانس « ان تلك الشوارب القديمة (يعني رجال الحرس) لم يكونوا يجسرون على مخاطبة أصغر ملازم

في الجيش بمثل ما كانوا يخاطبون ذلك القائد الاكبر الذي كانت هيبته تملأ نفس الجيش كله»

وقال دون باسانو « اني رأيت الامبراطور مئة مرة ينتقل ليلا من معسكر الى آخر ويقف هنا وهناك لدى النيران ويسأل عما يغلي في القدر ثم يقهقه من الاجوبة المضحكة التي كان يسمعها من الجنود »

وقال القومندان كلود برجيه في تاريخه «يالله ما أعرف نابوليون بالجندي الفرنسوي وما أقدره في مخاطبته والضرب على أشد الاوتار تأثراً في قلبه أعني وتر الشرف ولقد وصف نابوليون نفسه الجندي الفرنسي في صفحة جميلة قال فيها « ان الجندي الفرنسوي رجل مفكر قاسي الحكم فيما يتعلق بشجاعة ضباطه ومواهب رؤسائه ، وهو يجادل رفيقه في شأن الخطط والاساليب الحربية ويستطيع القيام بأي عمل من الاعمال اذا كان لرؤسائه حرمة في نفسه ، واذا كان هو يستحسن مجرى الاحوال الحربية . أما اذا كان الامر على العكس فلا يمكن الاعتماد على الفوز . وابن فرنسا هو الجندي الوحيد بين جنود اوربا الذي يستطيع القتال ويقوم بجليل الاعمال وهو ضامر البطن مطوي الاحشاء على الطوى . ومهما طال زمن المعركة فهو ينسى الاكل في سبيل الفوز ، حتى اذا انتهى القتال صارت مطالبه أكثر من مطالب غيره . والجندي الصغير من الفرنسويين أشد اهتماماً باحراز النصر من ضابط بروسي ، وهو يدعي ان الفضل

الا كبر في كل نصر يرجع الى فيلقه . وجملة القول ان جنود الامم الاخرى تصبر يوم الوغى بحكم الواجب ، والجندي الفرنسوي يحارب اجابة لصوت الشرف فاذا اصابه فشل شعر بأن نفسه ذليلة واذا فشلت الجنود الاخرى عادت غير مكترثة »

وربما كان رأس الامور التي حملت نابوليون على تسمية الوسام الذي أحدثه « بوسام جوقة الشرف » ما كان يعرفه من رسوخ ذلك الشعور في نفس الفرنسوي واذا رجعت الى الاوامر العسكرية وخطب التحريض التي كان يلقيها عليهم أبصرته يحاول فيها كلها أو جلها ان يظهر للجندي ما يحرزه من الشرف والفخر هو وآله اذا عاد وأكليل النصر يزين جبينه . ولقد كان الاعداء انفسهم يعرفون ان قوة الجندي الفرنسوي انما هي بعواطفه وشواعره لا بقوة ساعديه وعرض كتفيه . قال أحد القواد البروسيين بعد معركة يانا « لو كان علينا أن نقاتل الفرنسويين بسواعدنا فقط لادركنا النصر في وقت قريب لان الجندي الفرنسوي صغير ضئيل يستطيع الماني واحد ان يتغلب على اربعة مثله ولكن هؤلاء الجنود الصغار ينقلبون الى طبقة فوق طبقة البشر تحت النيران ، ويندفعون بنخوة لا نستطيع ايضاحها ولا نرى لها مثيلا في جنودنا » ولا شك في ان هذا الاقرار من ضابط بروسي كان من أجمل الشهادات التي تسطر للجنود الفرنسوية

وكان نابوليون لا يكتفي باظهار الاحترام والميل اليهم من أجل

تلك الفضيلة بل كان يحبهم حباً صادقاً . قال المؤرخ الذي تنقل عنه ان جنوده كانوا أولاداً له بالمعنى الصحيح يشرف على امورهم ويسهر عليهم كما يسهر الاب على بنيه ، ويحضر توزيع المآكل عليهم ويتناول الحساء (الشوربا) معهم

وكان نابوليون يضع اللين في محله والقسوة في موضعها فيعفو عن الجندي المذنب اذا رأى وجهاً لعذره أو ما يخفف ذنبه ولا يتسامح اذا وجد التسامح مضراً بالمصلحة الحيوية واليك حكاية تدلك على شيء من خلقه :

حدث أيام معارك بروسيا ان الجنود الفرنسوية ضربت مضاربها لتستريح بعد السهر المضني ثلاث ليال متوالية . ولما جاءت العتمة خرج نابوليون يتفقد أحوال الحراس في اطراف المعسكر جرياً على عادته في كثير من الاحيان ولا سيما في الاوقات العصيبة ، فاتفق أنه رأى حارساً برّح به الوصب وتسلط عليه النوم بعد السهر الطويل فهوى الى الارض ونام تاركاً بندقيته الى جانبه . فأراد نابوليون ان يوقظه ولكنه ابصر في تلك الدقيقة طوافة من الضباط قادمة نحوه فأخذ بندقية الحارس النائم ووقف مكانه حتى لا يدع الضباط يبصرون به ويعاقبونه . ولما طلبت الطوافة سر الليل أجابها « نابوليون » فسارت في طريقها لاتمام التفتيش . وفي تلك الاثناء استيقظ الحارس النائم فوجد بندقيته بيد رجل غيره فاسرع نحوه فاذا هو قائده ومولاه . ولكن نابوليون سرّى عنه قائلا « لا تخف » ثم سأله « كم مضى

عليـك من الزمن بلا نوم ؟ « فقال » ثلاثة ايام ، ومع ذلك فاني ما كنت لانام لولا ما اصابني من الجروح » . ثم ابصر نابوليون ان الجندي كان مصاباً بجرحين فاعجب به ومنحه وساماً ثم قال وهو يبتعد عن ذاك البطل « لا ريب اني أستطيع فتح العالم بهؤلاء الرجال . . . »

وكان نابوليون يعرف وجه الضعف في رجاله فيأخذهم به ويضرب على الوتر الحساس من أوتار قلوبهم . فمن شأنه المعروف انه كان مع شدته في المحافظة على النظام العسكري يسمح لرجال الحرس القدماء الذين حضروا المعارك وأبلوا البلاء الحسن بان يخاطبوه بصيغة المخاطب المفرد بعكس ما يقضي به أدب الحديث في اللغة الفرنسوية ولا سيما اذا كان المخاطب كبيراً والمخاطِبُ صغيراً فان استعمال صيغة الجمع في الكلام واجب لا يصح اغفاله . على ان نابوليون كان يعلم ان عادة اولئك الابطال التي تدل على انتفاء الكلفة صارت اليهم من روح الجمهورية وانها تنطوي على همة واحترام يسهل في سبيلها بذل المهج الغالية

وكان نابوليون قبيل عرض الجنود يدعو الكولونل ويسأله عن اسماء الذين امتازوا في المعارك الماضية ويطلب بعض أخبار عن اهله . ثم يمر وقت العرض باولئك الجنود الممتازين فيذكر لكل منهم اسم المعركة التي امتاز فيها والمكافأة التي أخذها ويسأله عن أمه العجوز

ان كانت حية او عن غيرها من آله الاقربين فيطير الجندي منهم فرحاً وطرباً حين يري قائده الاعظم يتذكر خدمته ويعنى بامره ، ثم يصبح نابوليون حديث النهار وسمر الليل بين الجنود كلهم فيأخذ كل منهم يحكي حكاية عن ذاكرته العجيبة ومعظم تلك الحكايات من بنات المخيلات

وكان من اكبر العوامل في تفاني الجنود ان كل واحد منهم بات يحسب نابوليون منصفاً للشجعان وذوي الكفاءة الحربية ، وكان كبار القواد اقوى البراهين الحية لديهم على صحة ذاك الاعتقاد. فانهم خرجوا من قلب الجيش وبعضهم استوى على العروش مثل المارشال مورات الذي عين ملكا لنابولي وبرنادوت الذي استوى على سدة اسوج . ومعظم الجنود كانوا يرون الرقي الى احد العروش رتبة عالية من الرتب التي كان نابوليون يمنحها لرجاله فيقولون مثلا « فلان صار ملكا كما يقولون فلان رقي الى رتبة كولونل » مع مراعاة النسبة بين الرتبتين

وهناك أمر آخر كان نابوليون يعني به عناية خاصة ، وهو تعزيز ما يسمونه « روح الفيلق » في الجيش ومعناه بعبارة أخرى ان يفرغ القائد جهده في زيادة التنافس الشريف بين فيالق جيشه فتتسابق في مضمار الشجاعة والبأس . ولقد نجح نابوليون نجاحاً باهراً في هذا السبيل حتى صار كل فيلق من فيالقه بل كل الاي من الاياته يعد نفسه في مقدمة الجيش . ومما يذكر عن سمو الاساليب

التي كان يتبعها نابوليون لبلوغ المرام انه كان اذا رأى التعب والجوع البرود تنهك تلك الجنود الفولاذية كما كانوا يلقبونها ، نزل هو وسار مع الجنود فاخذ كل واحد من هؤلاء يقول « الامبراطور . الامبراطور » وتغيرت مشية الفيلق كله كأنما تيار كهربائي سرى اليه من اوله الى آخره

هكذا كان نابوليون ، وهكذا كانت جنوده . وكل فريق منهم خليق بالآخر

الفصل الثامن عشر

نابوليون وقواده

كان نابوليون ينظر الى الجيش كما ينظر الصانع العالم الى آلة عظيمة يقتضي تركيبها تدقيقاً شديداً وفكراً مديداً ، ولذلك كان يفكر في كل ما قلّ وجلّ من اموره حتى انتقاء الخيل وشراء المؤونة اللازمة لها كما تدلنا رسائله المدهشة . وليس بنا حاجة الى القول ان اختيار قواده كان له الشأن الاكبر لانهم القطع الرئيسية التي تتركب منها تلك الآلة العظيمة

ولم يكن في وسع نابوليون منذ مئة وثلاثين سنة أن يختار قواده من الضباط الذين قضوا سنوات عديدة في درس القواعد العسكرية لان التعليم العسكري لم يكن شيئاً مذكوراً في ذاك الوقت ، والفضل في كثير من القواعد الحربية الباقية حتى اليوم يرجع الى

نابوليون نفسه وما كانت عظمة هـذا البطل الذي لم تحطّ مثله أصلاب البشر قائمة بيسالته وانتصاراته فقط بل كانت تقوم بها وبنظاماته ومبتكراته وعبقريته العجيبة الشاملة . وعليه فان نابوليون لم يكن له مندوحة وتلك حالة التعليم العسكري في زمانه من اخذ أولئك القواد الذي خلد التاريخ ذكرهم من صميم جيشه أي أفراد الشعب الذين قاتلوا في سبيل الدفاع عن حريتهم وحرية وطنهم وصدوا دول اوربا التي هبت لاذلالهم . وكان نابوليون قوي الفراسة صادق النظر في الرجال فاستطاع ان يقدر قدر كل واحد من الذين خدموا تحت امرته وعرف نوع الخدمة التي كان يمكنه أن يتفوق فيها . مثلا انه رأى مورات فادرك انه خـير رجل يقود كوكبات الفرسان ويقدم لهـا المثل الاعلى بنخوته وحميته وشجاعته . وقرأ على جبين ناي انه الرجل الذي يطير الى الحمام في صدر المشاة . وما اخطأ ظنه فان ناي كان يسخر رجاله بالقدوة الجميلة وهو الذي اخذ بندقية في معركة واترلو وصاح « تعالوا انظروا كيف يموت مارشال من مارشالية فرنسا . . . » ، وهو الذي قال فيه نابوليون « ما هذا رجل ان هو الا اسد من الاسود »

وليس لدينا مجال كاف لنذكر ما أبداه كل قائد من القواد العظام فحسبنا ان نذكر مع مورات وناي بسيير وسول ولان وموشيه وبرتييه ودافو وجوفيون سان سير واوجيرو وجونو وماكدونالد ومسينا ولازال وكولنكور . فهؤلاء وعدة من الابطال كانوا اسوداً

لا تقهر ، ولكن نابوليون كان يخضعهم بنظرة وهو في ذروة مجده الحربي

وذكر نابوليون خطة سلوكه مع قواده قال « كنت احرّ الرأس البارد وابرّد الرأس الحار » أو بعبارة اخرى انه كان يكسر من حدة الحديد ويثيرها حماسة البليد مراعاة لمقتضى الحال وهي خطة بسيطة في ذاتها ولكن تنفيذها مع قواد نابوليون كان يقتضي عقلا كعقل نابوليون

وكان من مزايا الرجل أن يزن حسنات كل قائد فاذا رجحت سيئاته حاول أن يصلحه بحذق وبراعة . فمن الحوادث المعدودة من هذا الطراز انه شرع يوماً في تعنيف ضابط في رتبة كولونل لان جنوده اضروا بمصالح احدى الدساكر فشق على الضابط ان يسمع الكلام المر من قائده واراد ان يتنصل فقال له نابوليون همساً « انا صدقتك فاسكت » وفي اليوم التالي دعا نابوليون الكولونل وقال له « كن مستريح الفكر فقد كنت أعنف في شخصك بعض الجنرالية الذين كانوا بجانبك ولو وجهت اليهم التعنيف مباشرة لاوقفتهم في موقف يستحقون فيه التحقير أو ما هو أبلغ منه . . . »

واذا اتفق انه جرح في حديثه قائداً كبيراً ، حاول بعد الحديث أن يضمد جرحه . فمن ذلك انه انتقد انتقاداً شديداً على الجنرال مارمون بعض الاعمال الحربية في معركة واجرام فسخط مارمون من هذا الكلام وعاد الي منزله كسير القلب شديد الكرب . فما وصل

حتى جاءه رسول امبراطوري يحمل اليه البشرى بترقيته الى رتبة مارشال

ولما أخذ العدو بلدة مونترو سنة ١٨١٤ رأى نابوليون ان تأخر المارشال فيكتور كان السبب في ضياعها وأصدر اليه اذناً في ترك الجيش . ومعلوم ان هذا الاذن لم يكن له من معنى الا سخط الامبراطور عليه . فجاء المارشال فيكتور وعيناه مغرورقتان بالدموع فقابله نابوليون وهو يتميز من الغيظ وعيّره الخطأ الذي ارتكبه واستحق من أجله الابعاد عن الجيش . فلم يتمالك المارشال ان رفع صوته واكد اخلاصه وذكر خدماته في ايطاليا ، فسكن غضب نابوليون لذكر تلك الخدمات ثم صافحه قائلا « لا بأس ابق في الجيش يا فيكتور ولكني لا أستطيع ان أعيد اليك فيلقك بعد ان عقدت لواءه لجيرار وانما يمكنني ان اوليك قيادة فرقتين من الحرس فاذهب واستلم قيادتهما ولا تذكر بعد اليوم شيئاً مما جرى »

ولو شئنا أن نذكر ما لدينا من هذا الطراز لاستغرق مجالا واسعاً وتجاوز بنا الغاية المقصودة في هذا الكتاب . فحسبنا أن نقول ، ومذكرات مارمون (الذي خان نابوليون في أواخر عهده) خير شاهد — ان نابوليون كان في معظم الاوقات يجرح باليمين ويداوي بالشمال . ومما قاله الخصوم في تفسير هذا السلوك الحميد « ان مصلحته الخاصة وقلة الرجال الاكفاء حملتا نابوليون على مداراة رجاله » وهو تفسير لا يذهب بفضل نابوليون ولا يحط في

قدر سلوكه بل هو يدل على حسن سياسته واصالة رأيه وليس بمنكر على الرجل أن يفعل الخير ويحسن الصنع لانه يتفق مع مصلحته أو لان مصلحته كانت تدفعه اليه . فانما الامور بنتائجها لا باسبابها . وكل من يقبح مثل هذا المنهج يكون مثله مثل من يطعن على رجل ينقذ آخر من الغرق لانه أراد الحصول على وسام الانقاذ او مكافأة اخرى

واذا طالعنا المذكرات الخاصة وجدنا فيها ما يدل على شدة حبه لقواده . قال كونستان بعد النصر الباهر الذي احرزه نابوليون في مارنجو « انه مع النصر الفاصل الذي أوتيه القنصل الاكبر (أي نابوليون) كنت ارى الحزن يملأ نفسه واسمعه يردد « ان فرنسا فقدت بفقد دسكيس فتى من خيرة ابنائها وفقدت أنا صديقاً من أفضل الاصدقاء »

ولما استوى نابوليون على العرش الامبراطوري لم يتغير شيء من عواطفه نحو قواده بل لبث يسمح للمارشال لان بأن يخاطبه بصيغة المفرد ، وما بلغ نابوليون خبر اصابته بجرح مميت حتى تولاه حزن عظيم واخذ يزوره صباحاً ومساء » واتفق انه وصل في عيادته الاخيرة بعد ان لفظ المارشال روحه الطيبة فتقدم نابوليون وقبله وبكى ثم أخذ يقول « يا لخسارة فرنسا ، يا لخسارتي » ولما حاول برتييه ان يذهب به ويكفيه مؤونة ذلك المنظر الاليم قاومه نابوليون نحواً من ساعة

وفي اليوم التالي كتب نابوليون الى أرملته يقول « أيتها النسيبة ، مات المارشال على أثر الجروح التي اصابته في ساحة الشرف فخلف لي من الحزن ما يضارع حزنك ولا غرو فاني فقدت بفقده أفضل قائد للجيش وخير رفيق وصديق لزمني منذ ست عشرة سنة . ان أسرته وأولاده لهم كل حق في طلب حمايتي ورعايتي »

ثم كتب الى الامبراطورة « اذا امكنك أن تساعدي في تعزية أرملة المارشال فافعلي . . »

وررت دوقة ارباتنيز انه لما فقد جونو أمه كتب اليه الامبراطور نابوليون كتاباً لطيفاً خاطبه فيه بلهجة كالتي كان يخاطبه فيها أيام معركة طولون أو أيام حرب ايطاليا ، وهي لهجة الصداقة والالفة الخالية من كل كلفة

ولما أصيب ديروك بقنبلة عند درسد ذهب اليه الامبراطور نابوليون وضمه الى قلبه مراراً . ثم عاد خائر القوى لفرط الاسى وهو يقول ، يا للهول ، أيها العزيز ديروك ما اعظم خسارتي فيك » وكانت دموعه تسيل على خديه وتسقط على ملابسه

ثم أمر الامبراطور بشراء أرض وباقامة تمثال لذلك القائد العظيم وبكتابة العبارة الآتية تحت التمثال « هنا الجنرال ديروك دوق فريول وأحد مارشالية نابوليون العظام ، أصابته قنبلة فمات موتاً مجيداً بين ذراعي الامبراطور »

وما اكتفى نابوليون باكرام هذا الفقيد بل صرف عناية كبيرة

الى عيـلة ديروك ومنح أرملته وابنته دوقية فريول (وكان ريعها وقتئذ لا يقل عن مئتي الف فرنك في العام)

* * *

على ان هذا الشعور الجميل الذي كان يبديه نابوليون في مثل تلك الاحوال لم يكن يحول دون استقلال فكره وارادته . فقد كان عند الضرورة شديداً قاسياً . وثبت انه كان في ايطاليا ومصر حين كان جنرالا كبير المطامع ، أشـد واقسى في معاملة القواد والجنود مما كان عليه بعد استوائه على السدة الامبراطورية واستلامه مقاليد الحكم المطلق وانساع شهرته وسطوته في العالمين . قال خصوم نابوليون انفسهم في مذكراتهم « ان هذا الجنرال الصغير كان يخيف قواداً مثل اوجيرو وماسينا وغيرهما سنة ١٧٩٦ . ولما جاءه الجنرال دينوا سـنة ١٧٩٧ بقصد التملق والتزلف قال له نابوليون « عرفتك لما كنت قائداً في لومبارديا وعرفت انك قليل النزاهة عاشق للمال ، على اني كنت اجهل انك جبان » فاخرج من الجيش ولا تظهر امامي مرة اخرى

وكتب نابوليون الى برتيه يقول « اكتب الى الجنرال جاردان ان شكاوي عديدة انتهت اليَّ من احراجه لاهل البلاد وان الواجب عليـه ان يسلك سلوكا يتفق مع كرامة الجيش ، فلا يسمعني بعد اليوم شكوى واحدة من تصرفه »

وكتب الى الاميرال تروجيه « لا يسعني الا الاستياء من

الاسطول الذي تحت أمرتك . وأنا يحق لي ان انتظر محاسن الافعال بدلا من المواعيد والاقوال »

وكان نابوليون لا يحابي الوزراء ولا الكبراء حتى في سنة ١٨١٤ أي بعد ان مال نجمه الى الافول . وهذا يدلنا على صحة ما قاله احد المؤرخين وهو ان نابوليون لم يكن ذئباً ولا خروفاً . . .

الفصل التاسع عشر

نابوليون وأهوال الحرب

يحق للقارئ أن يسأل هنا : اذا كان نابوليون رقيق الشعور طيب القلب ، فلماذا جدّد معامع الحروب العديدة ولم يفرغ جهده في سبيل تعزيز السلم بين فرنسا وسائر الدول ؟ ان الجواب الوافي على هذا السؤال يقتضي تفصيل ما جرى من المفاوضات في عهد نابوليون فحسبنا ان نقول بشهادة المجموعات الرسمية ان نابوليون نوى يوماً نية صادقة ان يسالم النمسا ، ونوى مرة أخرى أن يسالم روسيا ، ومرة ثالثة أن يصالح انكلترا ، ولكن الوزير الانجليزي ويليام بت والوزير النمسوي مترنيخ كانا يضمران عداوة راسخة كالرواسي لنابوليون ، واقنعا الحكومات الاوربية بان العالم لا يستريح مادام نابوليون جالسا على عرش فرنسا . ولما عظمت ديون انكلترا لكثرة ما ارسلته من الاموال الى النمسا وروسيا لتساعدهما على

قتال نابوليون ، مالت حكومتها الى الصلح ، ولكنها ما لبثت أن عادت الى سياسة الوزير ويليام بت . وجددت التحالف على نابوليون

واذا أراد القارىء برهاناً على حقيقة شعور نابوليون وهو بين أهوال الحروب فليطالع ما كتبه بعد معركة اوسترليتز الشهيرة في نشرة الجيش الاعظم (لقب لجيشه) قال « اني لم أرَ ساحة من ساحات القتال أشد هولا وفظاعة من أوسترليتز ، فنحن نسمع من وسط البحيرات الواسعة صراخ ألوف من الرجال ولا نستطيع مساعدتهم . . آه ان قلبي يقطر دماً »

وكتب الى الامبراطورة بعد معركة ايلو « ان الارض مملوءة بالقتلى والجرحى واني أتألم وأشعر بانقباض في صدري لرؤية تلك الضحايا »

وروى دوق روفيجو « ان الامبراطور نابوليون امتطى جواده بعد معركة وجرام وأخذ يتفقد ساحة القتال جريا على عادته ، وكانت سنابل القمح عالية جداً فلم يكن في وسع الباحثين عن الجرحى أن يروا الجندي الطريح ، فأخذ كثيرون من الجرحى المساكين يربطون مناديلهم برؤوس البنادق ليدلوا الباحثين على مواضعهم ، وكان الامبراطور يذهب بنفسه الى حيث كانت المناديل ويحادث الجرحى ويطيب نفوسهم ولم يعد من ساحة القتال الا بعد أن نقلوا آخر جريح »

وقال ولتر سكوت وهو من أعداء نابوليون « انه (يعني نابوليون) كان يمر في ساحة الحرب ويظهر شعوراً رقيقاً وعطفاً شديداً عند رؤيته للجرحى . وما كان هذا بالامر الغريب لان نابوليون لم يكن يستطيع النظر الى انسان يتألم بدون أن يظهر عطفاً عليه »

فنابوليون اذاً كان ينظر الى أهوال الحروب بالعين التي ينظر بها كل قائد يشعر ويتألم ، ولكن عقله لم يكن تحت سلطان قلبه ، والعوامل المتباينة كانت تدفعه الى معامع الحروب . ولولا خوف أوربا منه لتمكن في أواخر عهده من البقاء مخلداً الى السكون وليس يدلنا على رغبته في الهدوء بعد ان اتسع سلطانه وشبع من ثمار المجد الطيبة التي جناها في الشرق والغرب مثل الرسائل التي كتبها وأشرنا الى بعضها

الفصل العشرون

تأييد نابوليون للعلوم والفنون

لما كان نابوليون من ذوي العقول الراجحة والقلوب السامية ، حقّ عليه أن يؤيد كل شريف وعظيم . وأي شيء أعظم وأشرف من العلوم والفنون ؟

والحق ان النهضة العلمية التي حدثت في عهده خلدت له فضلا كبيراً وجاءت طليعة جميلة للاكتشافات التي ميزت القرن التاسع

عشر . وما كان نابوليون يجتزىء باحترامه للعلماء بل كان يحميهم ويؤيدهم ويستصحبهم كما فعل في حملة مصر ، حتى اجتمع لديه نخبة العلماء الذين حق لفرنسا أن تفاخر بهم

ولما سلم اليه الشعب الفرنسوي مقاليد الامبراطورية أغدق عليهم النعم ومنحهم الالقاب ، وكان يرى انه لا شيء ادعى الى تشريف ملك او امبراطور من تشجيع الالى ينهضون بالعلوم وينفعون الانسانية

وكان العلماء الذين قربهم واكرمهم بطل اوسترليتز منقطعين الى فروع مختلفة من العلوم فنهم الرياضي الكبير مثل مونج ، والكيماوي المدقق مثل برتوليه ، والعالم الفلكي مثل لالاند ، والمتبحر في علم الحياة مثل بيشا وغيرهم من علماء الطبيعة والهندسة . ومما يستحق الذكر من اعمال أولئك العلماء انهم لم يكتفوا بتوسيع نطاق التعليم بجهدهم العظيم بل كانوا يأتون بمستحدثات خطيرة ، ولقد فتح كل منهم باباً من الابواب التي دخلها بعدهم العلماء الآخرون ووصلوا منها الى بعض الاكتشافات الخطيرة

وكان الامبراطور نابوليون يرى ان تلقيبه « بعضو المجمع العلمي » لا يعلوه الا اللقب الامبراطوري . ولما كان قنصلا أول وشغله اقل من مشاغله الكثيرة بعد ارتقائه الى العرش ، كان يحضر معظم جلسات المجمع العلمي ويفخر بكونه عضواً في الفرع الميكانيكي منه . ثم انتخبه الاعضاء رئيساً للندوة العلمية كلها ورأس جلستها

العامة . وكان العلماء مونج وبرتوليه ولابلاس من أحب الاصدقاء اليه . وكثيراً ما كان يتأخر ليلا لاستيفاء المناقشات الطويلة التي كانت تدور بينه وبينهم

وكان يطيب له في كثير من الاحيان أن يوقع هذا التوقيع وهو في مصر « بونابرت القائد الاكبر والعضو في المجمع العلمي »

أما الفنون فلم تكن عناية نابوليون بها أقل من عنايته بالعلوم . وكان فن التمثيل من جملة ما أحبه وحماه وأيده ،على أنه كان يفضل منه نوع المأساة المعروفة بالتراجيديا ، وكان ألما الممثل الشهير أحد أصدقائه المقربين . وربما كان ميله الى التراجيديا القديمة ناشئاً عن وجود القدوة والمثال فيها . ولما اجتمع لديه الملوك وأرباب التيجان في ارفور دعا اليه الممثل ألمـا وزملاءه في مسرح « الكوميدي فرنسيز » وعند وصولهم التفت الى صديقه ألما وقال « أيها الصديق العزيز لا يحق لك أن تشكو فاني جمعت الملوك اليوم ليسمعوك » وكان نابوليون يميـل الى مطالعة هوميروس ويعجب بروايات كورنيل ، وممـا يؤثر قوله في درسد « لو كان كورنيل حياً لجعلته ملكا ن . على انه كان يكره فولتير وجان جاك روسو لان الاول أراد أن يهدم كل شيء ، والثاني استحق الكره من أجل حياته الخـاصة .

أما الشعراء فقد كان نابوليون يؤيد جماعة منهم مثل رينوار

واندريو وميلفوا وميشو . وقيل ان نابوليون ساعـد لوس دي لانسيفال في تأليف رواية هيكتور

وما يقال عن تشجيعه للمؤلفين والممثلين يقال عن اهتمامه بالتصوير والموسيقى . فقد بلغ هذان الفنان في عهده درجة راقية . وكان بتهوفن الموسيقي الالماني الـكبير في طليعة الذين ألفوا ألحاناً موسيقية « للجنرال المنصور » أي نابوليون

الفصل الحادي والعشرون

نابوليون في شاهق العظمة

بلغ نابوليون شاهق العظمة ومنتهى الحول والسلطان سنة ١٨١٠ فان الامبراطورية الفرنسوية في ذلك العهد كادت تضارع امبراطورية شارلمان من حيث الهيبة وبسطة الملك ، وكان نابوليون يلتفت وراءه فيرى اوسترليتز حيث صرع النمسا وايلو وفريدلاند حيث قهر روسيا ويجد بولونيا خاضعة تحت جناح نسره واسبانيا مترعرعة تحت يده الفولاذية . ثم يرى وجرام حيث ضرب النمسا مرة أخرى ويتمثل دخوله ميلان وما تقدمها من الانتصارات الباهرة كما يتمثل دخوله مدريد وبرلين وفرسوفيا وفينا (مرتين) ، واجهازه على السلطة البابوية الزمنية مع احترام سلطته الدينية ، ومرور جملة من ملوك أوربا بين يديه في ارفور كأنهم يمرون امام فاتح العالم . وكان

اذا خرج في باريز وجد حديد المدافع التي غنمها يقوم عموداً عظيماً في احدى ساحاتها . وكانت البلدان الموضوعة تحت سلطان فرنسا مباشرة في تلك السنة مقسومة الى ١٤٠ ولاية وجُعلت جنيف وانفرس واكس لاشابيل وفلورانس وجنوى وامستردام تحت امرة مديرين من الفرنسويين . وهناك الممالك التي كانت تحت اشراف فرنسا او منتمية اليها اما لان نابوليون كان واضع أساسها أو نظامها واما لان ملوكها من صنائعه وأقاربه مثل ايطاليا ومملكة نابولي وأسبانيا ووستفاليا فان ملوكها كانوا من اخوة نابوليون وأصهاره . ومثل بافاريا وورتمبرج وسكسونيا فان نابوليون هو الذي رفعها الى رتب الممالك المستقلة . كل ذلك من ثمار الانتصارات اللامعة الساطعة التي أدهشت العالم وغيرت خريطته

أما تأثير تلك الانتصارات والانقلابات في الشعوب من الوجهة الفكرية فلم يكن أقل من تأثيرها في الوجهة المادية . وكل من يعلم ان نابوليون هو ابن الثورة الفرنسوية ، وان افكاره هي أفكار الذين قاموا بها سنة ١٧٨٩ وقواعده هي قواعدهم ، وان ارتقاءه الى عرش الامبراطورية كان طبقاً لارادة الامة وضرباً من ضروب المبايعة — لا يعجب من وجود الآثار الديمقراطية في نفس تلك الامبراطورية ومن كونها تختلف اختلافاً كبيراً من هذا الوجه عن الامبراطورية الروسية أو النمساوية في ذاك الوقت . ان الملوك المستبدين كانوا يخافون من الآراء الحرة في عهد نابوليون بقدر ما كانوا يخافون

سيفه البتار . أليس نابوليون هو الذي جعل مورات ابن الشعب صاحب تاج . أليس نابوليون الذي كان يقول ان قوتي هي من قوة الشعب ويهز كتفيه لكل ملك أو سلطان كان يدعي انه وكيل الله أو ظله على الارض ؟ أوليس نابوليون الذي كان يقول « ان الشعب هو الذي يهمني لا أرباب الاموال ولا اصحاب القصور . واليك حادثاً يدلك على شدة عنايته بعامة الامة وطبقات العمال :

حدث سنة ١٨١١ ان طلائع موسم القمح كانت سيئة فاخذ نابوليون يشتغل آناء الليل وأطراف النهار ليهيىء غذاء الشعب ثم جرى حديث بينه وبين الموسيو مونتاليفيه الذي كان يشتغل معه فقال مونتاليفيه « سيكون الخبز موجوداً ولكنه سيكون غالياً » فما سمع نابوليون هذا الكلام حتى قفز من كرسيه سخطاً وحنقاً وقال له « ماذا تقول ؟ أتقول ان الخبز سيكون غالياً ؟ لمن نشتغل وبمن نهتم منذ شهرين ؟ أتظن انا نهتم بالاغنياء ؟ هؤلاء لا يهمونني لان من يملك مالا يملك على الدوام خبزاً . فانما همي ان يحصل الشعب على الخبز الرخيص الجيد الوافي ، وان يتمكن العامل من العيش هو وعيلته باجرة يومه . . . »

وما انحصر تأثير الامبراطورية البونابارتية « امبراطورية الثورة الفرنسوية » كما لقبها أحد المؤرخين في الشؤون السياسية بل تناول مبدأ الحرية الدينية أحد مبادىء تلك الثورة . فان الكاثوليك

الالمانيين لم يكونوا قبل عهده متمتعين بحريتهم المذهبية التامة لان الحكومة الالمانية وسائر أهل النفوذ من البروتستان كانوا يحرجونهم وينظرون اليهم بعين حمراء

وصفوة القول ان تأثير حكم نابوليون في العالم كان عظيما من الوجوه الحربية والسياسية والادبية والدينية ، وان الثورة الفرنسوية تمثلت في رجل بدل تمثلها في مئات من النواب . ولا شك في ان مبادئها الدستورية السامية لم تكن بمأمن دائم لان نابوليون كان انساناً قابلا للموت فلما رحل عاد الدستور الى نظامه الطبيعي بعد التقلب والتراوح

الفصل الثاني والعشرون

كيف كان مع اعدائه

لم يكن نابوليون يحمل الحقد ولا يود الانتقام . وحسبنا دليلا سلوكه مع اعدائه المجاهرين والمتنكرين . ونحن نضرب للقارىء هنا بعض الامثال :

ما ارتقى نابوليون الى عرش الامبراطورية حتى وقف كارنو أحد رجال الديركتوار في صفوف الحزب المعارض فلو كان نابوليون امبراطوراً غشوماً كما زعم بعض خصومه لقذف به الى وهدة العدم ولكن نابوليون كان امبراطوراً ذا طابع خاص فصبر عليه . ثم اتفق

يوماً ان كارنو وقع في ضائقة مالية وابلغ أمره الى نابوليون (كما جاء في كتاب لنابوليون نفسه مؤرخ في ١٧ يونيو سنة ١٨٠٩) فاهتم به وأبى مراعاة لكرامته ان ينفحه بشيء على سبيل التعطف والتكرم بل أمر بان يدفع له متأخر راتبه كجنرال في الجيش ثم عين له مرتباً قدره عشرة آلاف فرنك بحجة انه كان وزيراً قديماً

ولما كان نابوليون قائداً اكبر لجيش ايطاليا في عهد حكومة الديركتوار أرسلت هذه الحكومة الجنرال كلارك الى ساحة القتال ليراقب سلوك نابوليون سراً ويتجسس عليه كما ذكر ارنول في مذكراته ، فعلم نابوليون بامره ساعة وصوله ولكنه تعالى عن الاضرار به . ولما غضب ولاة الامور في باريز على هذا الجنرال ، هب نابوليون للدفاع عنه وكتب الى وزير الخارجية يقول « لاأريد ان أبحث لاعلم هل أرسل هذا الجنرال في البدء ليكون جاسوساً عليّ أو لا . وهب ان هذا الخبر صحيح فانا وحدي يحق لي أن أستاء منه وانا أجاهر باني أسامحه » وبعد مدة اعاد نابوليون هذا الجنرال الى وظيفته السابقة ثم عينه سفيراً ثم حاكما لفينا فبرلين ثم وزيراً للحربية . ولما تزوجت ابنته حباها الامبراطور بمبلغ من المال

ولما كان نابوليون بمصر اتضح له ان القائد الشهير دافو كان موالياً لخصومه فأبى نابوليون ان يلحق به ضرراً ثم اغدق عليه الالقاب والمواهب

ولما أعلن ارتقاء نابوليون الى عرش الامبراطورية أرادت

جنود الكولونل موتون ان تهتف للامبراطور فصاح فيهم الكولونل « اصمتوا ! » فعلم نابوليون وغفر له

وكان الكولونل فوا في مقدمة الذين أبوا الموافقة على الامبراطورية ومن المتهمين في بعض المؤامرات ، ولكن هذا كله لم يحل دون العفو عنه وترقيته بعد مدة الى رتبة جنرال واعطائه عشرين الف فرنك مكافأة على خدمته في البورتغال

وكان جوزيف شانيه يسلق نابوليون بألسنة حداد في مقالاته فعفّ نابوليون عن ضربه حتى رجع الى نفسه فعينه مفتشاً عاماً في الجامعة الامبراطورية ودفع عنه ديونه وعين له مرتباً

وروى كثيرون من المعاصرين لنابوليون في مذاكراتهم كشاتوبريان وفوشيه وتيبودو ان برنادوت اشترك في جميع المؤامرات والمكايد على نابوليون . ومع ذلك كله فان نابوليون جعله مارشالا اكبر ولقبه بامير بونت كورفو وحباه بمواهب جمة وانتهى الامر بان جلس برنادوت على عرش اسوج . فلو كان نابوليون لم ينظر الا مصلحته الخاصة ولم يشأ أن يبعد عنه قائداً بارعاً كما قيل ، لاكتفى بان يبقي برنادوت في درجة لا يتعداها . وربما كان الاولى به وبمصلحة فرنسا ان ينهج مثل هذا النهج فانه لو فعل لكفى أمته عار زحفه مع اعداء فرنسا بعد مدة

وقس على من ذكرنا كثيرين ممن لم نذكر . أما قول بعض النقاد ان نابوليون كان يخشى عاقبة التشديد على خصومه فهو قول

واهن لان نابوليون رأى اوقاتاً كان فيها التخلص من أعدائه أسهل عليه من قتل الذبابة . وما كان بالرجل الرعديد ليخشى الفتك فان تعنيفه لبعض القواد وطرده لبعضهم وضربه على أيدي اناس من أهل السطوة ، كل ذلك دليل كاف على انه كان قديراً على فعل ما شاء ولكن طبعه كان يصرفه عن ارتكاب الفظائع في رجاله ويحمله على اصلاحهم حيث كان يرجو الاصلاح والصلاح . ولقد ذهب بعض المؤرخين المدققين الى أن تطرفه في التسامح وتماديه في الصفح كانا أحد اسباب فشله . وقال ارتور ليفي بعد ان طالع مذكرات اصدقاء نابوليون ومذكرات خصومه « ان العيب الاكبر في خلق نابوليون والسبب التالي ان لم نقل الاول لاكبر فشل أصابه هو انه لم يظهر ارادة راسخة للمقربين اليه ولم يضرب بكف من حديد فيبيد كل مقاومة ظاهرة أو خفية أبداها أولئك الذين أغدق عليهم الثروة وأسبغ عليهم القاب الشرف ، ولكن نابوليون سلك مع قواده السبيل الذي اتبعه مع اخوته ، فكان يضحي باعلى المصالح شأناً وخطورة على مذبح المبدأ الادبي . . . والواقع ان ذكر خدمة في ايطاليا أو غيرها كان يكفي ليصرف نابوليون عن القسوة كما جرى للقائد فيكتور حين أراد ابعاده عن الجيش

الفصل الثالث والعشرون

هل كان نابوليون شجاعاً بالمعنى الصحيح ؟

بلغت الجرأة ببعض خصوم نابوليون أن طرح هذا السؤال . وكان السبب في وضعه على بساط البحث حكايتان هاك تفصيل الاولى منهما :

لما تنازل نابوليون عن العرش في فونتنبلو وخرج قاصداً جزيرة ألب التي نوى الاعتزال فيها رأى من عامة الشعب في طريقه عداء شديداً واجتمع كثيرون من الرعاع حول المركبة التي كانت تقله مع المندوبين الاجانب وأخذوا يسبونه ويلقبونه بالغول الكورسكي وبالجائر الغشوم . واندفع بعضهم الى المركبة فتشبث بدواليبها بينما كان الجبناء لا يجسرون على الاقتراب منها ويكتفون برجمها . وذكر الكونت والدبور ان الخطر أصبح شديداً هائلا حتى ان حاشية الامبراطور نابوليون ألحت عليه في وجوب تغيير زيه اتقاء لجناية قبيحة فوافقها نابوليون ولبس ملابس أحد الخدام الذين كانوا يسيرون أمامه ثم أخذ يعدو أمام المركبة . فأي انسان تحت السماء رأى هذا التناقض العجيب في حياته ؟ ان الذي قاد الجيوش في اوربا وآسيا وأفريقيا ودخل مئات البلدان ظافراً منصوراً وقهر من الاعداء أضعاف أضعاف جيشه وكانت الملوك تلتف حوله كالاتباع

وتمد كل لحظة من لحظاته ، اضطر الى التنكر بزي خادم والى الركض أمام مركبة حراسه ليأمن شر الزمر الهائجة من شعبه ! . . .

هذا هو الحادث الذي أسال المداد على بعض الطروس . فبقي أن ننظر هل تنكر نابوليون عن جبن ونذالة ؟ كلا ان العاطفة التي مالت به الى التنكر هي التي تميل بكل انسان الى التستر أو الاختفاء حين يرى ذئاباً أو كلاباً هائجة تريد عضه ونهشه . وليست الشجاعة أن يقذف المرء بنفسه الى الاهانة والتهلكة بلا نفع ولا جدوى . وان رجلا قاد الجيوش بنفسه واستهدف للقنابل والرصاص في ستمائة وقعة وخمسٍ وتسعين معركة كبيرة ، والامبراطور الذي فضل المعسكر على قصر التويلري ، وفتح صدره بعد رجوعه من جزيرة ألب للجنود الذين أرسلوا لمنعه من دخول باريس وقال لهم « من منكم يريد اطلاق الرصاص على امبراطوره فليفعل » — لا يصح أن توضع شجاعته موضع البحث . وجل ما يقال فيها انها الشجاعة المقرونة بالرأي والعرفان ، والبسالة اللائقة بعقل الانسان . وربما صح أن يقال فوق ما تقدم ان ضغط الحوادث الاليمة حال بين نابوليون وبين استنباط طريقة أخرى أفضل من التنكر في زي خادم والسير أمام المركبة ولكن هـذا النقد الوجيه لا يكفي لجعل بسالة ذاك البطل الخالد محلا للمظنة ومدعاة للريبة

* * *

أما الحكاية الثانية فهي ان نابوليون فكر بعد معركة واترلو

في الانتحار تخلصاً من اهانة النفي والاسر ، ثم عدل عن هذا الرأي ورضي بالعيش في جزيرة قاحلة ، واحتمل فظاظة رئيس حراسه وحرمانه من رؤية ابنه وفلذة كبده ، فاجاز بعضهم لنفسه أن يحسب تفضيل هذا العيش المرّ على الانتحار ضرباً من ضعف القلب . ولكن نابوليون قال شيئاً يوضح لنا سر نكوصه « وهو ان كل انسان في هذا المعمور خلق لأمر يقوم به فيجب أن يبقى حياً ليتمه الى آخره » . ثم ان نابوليون كان على رأي العلماء البسيكولوجيين الذين يقولون ان اقدام المرء على الانتحار خوفاً من ضيق العيش أو احتمال التعب هو ضعف في النفس وجبن في القلب . والرجل الحزوم هو الذي تكون همته أقوى من كل المصاعب والمتاعب التي تحيق به

وزد على ما تقدم ان نابوليون فكر في الانتحار يوم كان مبحراً الى جزيرة القديسة هيلانة . وفي ذاك اليوم كان أمله بحسن المعاملة لم ينقطع ، وبقي على هذا الامل الى ما قبل موته بعدة

أجل ، ان نابوليون عمد الى الانتحار بعد ما رآه من خيانة المارشال مارمون ونفور القواد الذين أسبغ عليهم النعم ، ولكن اقدامه على الانتحار في ذاك الوقت كان ضرباً من كره الحياة لما رآه من الانحطاط الانساني لا جبناً ولا خوفاً من مصاعب شامخة . وسيرى القارئ خلاصة ما جرى وقتئذ

الفصل الرابع والعشرون

طالع النحس

أفل نجم السعد وطلع طالع النحس على نابوليون منــذ أخذ قواده الذين أسبغ عليهم العطاء ونهض بهم الى أوج الشرف والعلاء يعارضونه في أوامره . ولقــد بدأ نابوليون يشعر بتقاعد أولئك القواد منذ سـنة ١٨٠٩ ويخشى مغبته . وروى الجنرال راب ان نابوليون قال في مأدبة أقيمت سـنة ١٨١٢ أمام مورات وبرتييه وغيرهما « ان ملك نابولي (أي مورات) لا يريد الخروج من قصره الجميل وبرتييـه يريد الصـيد والقنص في جروبوا وراب لا يروق له الا البقاء في منزله البديع في باريس » وقال مرة أخرى أمام برتييه « أنتم رؤساء اركان الحرب تعدون نفوسكم أرباب شأن وأهمية . . . اني جعلتكم سادة عظماء فأخذتم تتملقون بلاط النمسا » ثم قال لـكولنـكور دوق دي فيسانس « ألا ترى يا كولنـكور ما يجري ؟ ان الذين غمرتهم بالنعم يريدون أن يتنعموا ويأبون أن يقاتلوا . ألا ان هؤلاء المساكين لا يشعرون بأنهم ما زالوا في حاجة الى القتال للحصول على الراحة الاكيدة التي يتوقون اليها . أفلا يرون اني أملك مثلهم قصراً وان عندي زوجة وولداً ؟ أو لا يرون

اني أنهك صحتي بضروب المتاعب وأستهدف للخطر من أجل الوطن ؟ يا لنكران الجميل ! »

وكان نابوليون يعرف ان الدواء الوحيد لذلك الداء انما هو ابعاد الذين وهنت عزائمهم وأبوا الا التمتع في بحبوحة النعماء ، ولكنه لم يكن يرغب في الحاق العار بهم بعد ما شاركوه في النصر وكانوا ساعده الايمن في نيل الفخر

وليس هناك ريب في أن رغبة أولئك القواد العظام في الراحة والسلام حملتهم مراراً على مقاومة نابوليون وبلغت بأحدهم أن أفهم العدو ميله الى الصلح . ومما يذكر في هذا الصدد أنه لما اجتمع نابوليون والوزير مترنيخ في درسد للنظر في أمر الصلح قال المارشال برتييه لمترنيخ نفسه « لا تنسَ ان الجيش بل فرنسا كلها تريد السلم » في حين ان مصلحة نابوليون وفرنسا كانت تقضي بأن يخفي هذا الشعور أمام عدوه ، ولما أخذ نابوليون يظهر القوات التي كان في وسعه أن يحشدها وبدأ يطنب في أمرها جرياً على عادته ، التفت اليه مترنيخ وقال « ان الجيش نفسه يريد الصلح » فجرح هذا الجواب فؤاد نابوليون وقال « كلا ان الجيش لا يريد الصلح ولكن قواد الجيش يريدونه »

وكان أولئك القواد كلما آنسوا ضعفاً في معاملة نابوليون لهم ، ازدادوا جسارة ووقاحة عليه . ومع هذا كله فان تذكار الماضي ابى عليه ان يترك طريق التساهل والتسامح ، فصار يشاورهم في الامور

الحربية ويضيع شيئاً فشيئاً ثمرة عبقريته السامية . ولما زحف نابوليون الى روسيا سنة ١٨١٢ كان أولئك القواد يناقشونه الآراء والمسائل ويضطرونه في كثير من الاحيان الى التسليم بآرائهم . وفي سنة ١٨١٣ عدل عن الزحف الى برلين استسلاماً اليهم واشتبك في معركة ليبزيك التي كانت شؤماً ووبالا عليه . وانتهت به الحال الى أن قال للمارشال ما كدونالد « اني أصدرت الاوامر فلم يسمعوها ، وأردت ان أجمع البحارة مع حرس من الفرسان فلم يأت أحد » . ولذلك قال البارون فين معتمداً على أقوال الجنرال جورو « انه لو اعتمد نابوليون على نفسه وحدها لاتقى فشلا كبيراً »

ولما رأى نابوليون ان جنود التحالف الاوربي أخذوا يهددون فرنسا قرّر أن يسترجع سلطته وهيبته لدى قواده وقرر أن لا يسمح لهم بتعديل آرائه الحربية . وكان من مزاياه ان حزمه يتعاظم بتعاظم الخطوب والكروب . وهاك ما كتبه الى القائد اوجيرو :

« اذا كنتَ اوجيرو الذي عرفناه في كاستيليوني فلتبق القيادة لك . أما اذا كانت الستون سنة تثقل عاتقك وتضعف من همتك فاترك القيادة لأقدم جنرال من ضباطك فان الوطن مهدد ومحفوف بالمخاطر لا ينقذه الا الجسارة والارادة الحسنة . . . قم اذاً وافتح صدرك للرصاص في الطليعة »

وكتب أيضاً « أبلغوا الجنرال ديجون اني مستاء أشد الاستياء من طريقة استخدامه للبطاريات ، وان جميع المدافع كانت في حاجة

الى القنابل الساعة الثالثة بعد ظهر أمس لانه أبقى الذخيرة بعيدة عن البطاريات . وأخبروه ان ضابط المدفعية يستحق الموت اذا ترك مدافعه بلا ذخائر » . وقس على ما تقدم كثيراً من الملحوظات الشديدة

ولقد أحدث هذا الحزم في المعارك المعروفة بمعارك فرنسا ما كان يحدثه في أوائل عهده ، فتعالت همة جنوده وفعل في تلك المعارك بجيش صغير ما أدهش أوربا كلها التي كانت متحالفة عليه

على ان كثرة الاعداء وقلة اخلاص الرؤساء اضطره الى التقهقر بعد اعمال لا يزال النقاد الحربيون يعدونها أسطع دليل على مواهبه العقلية السامية وعبقريته الحربية العظيمة . وعلى أثر هذا الفشل قرر ان يتنازل وجمع قواده في فونتنبلو حيث جرى الوداع التاريخي الشهير قبل سفره الى جزيرة ألب واعتزاله فيها ، وقد رأى نابوليون الخيانة ممثلة في شخص المارشال مارمون الذي اتفق مع أعدائه كما رأى الوقاحة ونكران الجميل ممثلين في جملة من قواده الذين غمرهم بنعمائه . فان هؤلاء القواد الذين رفعهم نابوليون من الحضيض الى اسمى المناصب لم ينبسوا بكلمة تدل على عطف أو أسف بل قالوا له بلسان المارشال مكدونالد الذي أنابوه عنهم في الكلام « كفانا ما جرى . . . » وقال له المارشال ناي « يجب ان تكتب وصيتك فقد خسرت ثقة الجيش ... » ولما غضب نابوليون من هذا الكلام وقال له « ان الجيش لا يأبى الطاعة في عقابك »

أجابه ناي بوقاحة « لو كان لك سلطان لما كنت امامك الآن »
وبعد ان مرّ المارشالية كلهم ، استولى على نابوليون سخط شديد
من تلك الاهانة وصاح قائلا « ان هؤلاء الناس ليس لهم قلوب . .
ان ما أظهره رفاقي في الجيش من حب الذات ونكران الجميل بلغ
مني ما لم يبلغه سوء الطالع » . ثم تعاظم في نظره هذا الانحطاط
الانساني وكره الدنيا وما فيها ؛ وأراد ان يسم نفسه فاخذ برشانة
مملوءة من السم كان يعلقها في رقبته منذ سنة ١٨٠٨ حتى اذا وقع
في أيدي اعدائه وعمدوا الى تعذيبه أخذها وودع الدنيا . ولكن
الطبيب ما لبث ان جاء مسرعاً عند ظهور أعراض السم فانقذه ،
ولما افاق قال لكولنكور « لم يشأ الله أن أموت . . . وليس فقدي
للعرش بالسبب الذي جعل حياتي لا تطاق فان اعمالي الحربية تكفي
لمجدي . أتدري أي شيء أصعب على النفس من سوء الطالع ؟
أتدري أي شيء يفطر القلب ؟ هو الانحطاط الانساني ونكران
الجميل الى حد هائل . . . . هو الذي جعلني اكره الحياة وانفر
منها »

***

ثم سافر نابوليون الى جزيرة ألب بين مظاهر العداء التي قام بها
العامة . وفي ٣ مايو من تلك السنة أي سنة ١٨١٤ ارتقى الى العرش
لويس الثامن عشر البوربوني ، وفي ٤ يونيو أعلن دستوره . على
ان ارتقاء هذا الملك على أيدي الاعداء الذين غزوا فرنسا لم يلبث

ان صار موضوع الكره والانقباض ، ولا سيما ان المهاجرين عادوا مع الملك الجديد ، وأخذوا يحاولون تقويض ما صرفت فرنسا في سبيله خمساً وعشرين سنة وما قاتلت من اجله أوربا كلها ، وبلغت الوقاحة بجماعة منهم ان حطوا من شأن الانتصارات العظيمة التي كللت جبين فرنسا على يد نابوليون . وكأنما الدهر ابى الا أن يعاقب أولئك القواد العظام على سوء سلوكهم مع نابوليون في أواخر عهده فقرر الملك الجديد ابعادهم ، وتعيين شبان ليس لهم الا شرف المحتد بدلا منهم . وأشد ما أدمى عيون أولئك الابطال انهم أخذوا يرون « وسام الشجعان » يعطى يميناً وشمالا مع انهم لم ينالوه الا بعد ما استهدفوا ألف مرة للموت . وأشد من كل ما تقدم ان جماعة من الذين حاربوا تحت رايات الاعداء نالوا حسن الجزاء وان الحكومة الملكية الجديدة تنازلت للمتحالفين عن ٥٨ موقعاً حصيناً و١٢٠٠ مدفع و٤٢ سفينة لا يقل ثمنها عن مليار ونصف . وما انقضى العام على الملك الجديد حتى ظهر الاستياء العام في مظهر شديد

وفي تلك الاثناء كان نابوليون مستلماً ادارة الجزيرة فما مضت بضعة أشهر حتى ظهرت آثار الاصلاح في أبهى مظاهرها وشعر أهل الجزيرة بأن يداً جديدة مصلحة أخذت تعمل وفكراً سديداً أخذ ينتج . فمن اصلاح الطرق الى اصلاح التعليم الى انهاض التجارة والصناعة وغيرها حتى عمت تلك الروح جميع انحاء الجزيرة

وكان نابوليون في الوقت ذاته يستطلع طلع فرنسا ويتنسم اخبارها من وراء البحر فعلم ان سخط الامة من الحكم الملكي الجديد اخذ يشتد ويتفاقم لان الحكومة عمدت الى الارهاب فنشرت الجواسيس في كل جهة وصوب لا كتشاف الذين اقاموا على حبهم للعهد البونابرتي أو على كرههم للاعداد الذين دخلوا فرنسا واجلسوا الملك البوربوني على العرش

فلما رأى نابوليون تلك الحال قرر ترك الاعتزال ، وفي ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥ أبحر من الجزيرة مع جملة من رجاله القدماء على المركب « انكونستان » عائداً الى فرنسا ، وبينما كان مبحراً ابصرته البارجة زفير فتقدمت نحوه للاستيضاح ولما أبصرت راية جزيرة ألب سألت عن نابوليون فأجاب نابوليون نفسه « انه على ما يرام»

وفي أول مارس سنة ١٨١٥ نزل نابوليون الى الارض الفرنساوية من جهة خليج دون جوان وأصدر الى فرنسا منشوراً قال فيه :

« ايها الفرنسويون ان ما تقرر بلا رضاكم لا يعد شرعياً ، ويا ايها الجنود أترضون ان تقيد نسورنا بأيدي الذين قضوا خمسة وعشرين عاماً وهم يطوفون في انحاء اوربا ليثيروا علينا الاعداء والذين حاربوا الفرنسويين تحت الرايات الاجنبية ؟ فهيا اذاً الى رئيسكم واجتمعوا تحت لوائه ، فان وجوده من وجودكم وحقوقه ليست الا من حقوق الامة وحقوقكم ، ومصلحته وشرفه ومجده ليست الا مصلحتكم وشرفكم ومجدكم . ان النصر سيأتي على جناح

السرعة ، والنسر الامبراطوري بألوانه الوطنية سيطير من قبة جرس الى اخرى حتى يبلغ نوتردام »

ثم واصل نابوليون السير بعد هذا المنشور فلم ير حائلا يحول دون تقدمه حتى صار على مقربة من مدينة جرينوبل فوجد هناك الاياً من الجند امرته الحكومة بأن يسد الطريق عليه . فما كان من بطل اوسترليتز الا ان نزل عن جواده وتقدم نحو الجنود فاتحاً صدره وقال لهم « أبينكم من يريد قتل امبراطوره » فحولت الجنود سلاحها وصاحت بصوت طبق عنان السماء « ليحي الامبراطور » ثم اخرجت الشارات المثلثة الالوان التي كانت تخفيها في جيوبها وسارت مع نابوليون . ولما وصل الى جرينوبل أخذ أهلها يفتحون الابواب بأيديهم ثم تقدم نابوليون الى ليون واستولى فيها على السلطة الفعلية . فلما طار الخبر الى الملك انخلع قلبه رعباً ودعا اليه المارشال ناي وكلفه ان يذهب بقوة كافية لصد نابوليون فوعد المارشال « بأن يأسر المغتصب » كما قالوا ، ثم زحف بالجند اليه فما ابصره ونظر الى قبعات حرسة التي ذكرته بألف نصر حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتهافت بين ذراعي نابوليون فضمه الى قلبه وعاد الجيش الذي ارسله الملك البوربوني لاسر نابوليون حرسا فخما له ، واضطر لويس الثامن عشر الى الهرب خوفا على عنقه . وفي ٢٠ مارس دخل نابوليون قصر التويلري بدون ان يطلق رصاصة واحدة على فرنسوي

ولما استوى على سدته العالية حل القيود التي قيد بها لويس الثامن عشر ارباب الاقلام وأعاد للامة برلمانها الذي كان مؤلفاً من مجلسين أحدهما انتخابي والثاني ارثي وأقام حفلة عظيمة للدستور حضرها الشعب الباريسي كله ووافق على ما تم بغالبية ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥٠٠ صوت ضد ٤٣٠٠ صوت

أما اوربا فقد اهتزت من اقصائها الى اقصائها لذلك الحادث الخطير ، لان ملوكها كانوا يرون رجوع نابوليون بمثابة رجوع المبادىء التي قررتها الثورة والتي حاولوا الغاءها في فرنسا نفسها بعد اعتزال نابوليون في جزيرة ألب ، ويعتقدون ان السلم العام سيبقى مضطرب الحبل مع وجود ذلك القسور المغوار

أما نابوليون فلم يضع وقته بين مظاهر الاحتفاء والاحتفال بل أخذ ينظم جيشه بهمة شماء وما ظهر التحالف الاوربي الجديد حتى كان لديه ١٦٠ الف رجل فسيرهم للقاء جنود المتحالفين ليقاتل فريقاً بعد فريق فيتمكن من قهر كل قسم منهم على حدته . ولقد كانت الدلائل كلها تعزز امله فان جيشه قهر اولا البروسيين في ١٦ يونيو سنة ١٨١٥ عند فلوريس ولبني ثم التفت الى مقاتلة الانكليز بعد ان وكل الى القائد جروشي ان يواصل مطاردة البروسيين ثم ينضم اليه للاجهاز على الجيش الانكليزي . ولقد تغلب نابوليون على الانكليز من جهة الميمنة وأمر أخاه جيروم

بأن يأخذ عنوة غابة هوجومون فاستولى عليها ، ثم أخرج المارشال ناي الانكليز من سان جان بعد استيلائهم عليها واخترق الفرسان الفرنسيون المربع الانكليزي ، فخيل الى الجنرال ولنجتون الانكليزي ان جناح النصر خفق مع جناح النسر الفرنسوي . وانهم لعلى تلك الحال اذا بغبار يملأ الفضاء ورصاص يصفر في الهواء فقال الفرنسويون « جروشي جروشي » . ثم اتضح لسوء طالعهم انه بلوخر البروسي ، فاخذت الجنود الفرنسوية تقول « ان جروشي خائن » وتزعزت قوتها المعنوية . فعندئذ استل نابوليون سيفه وتقدم الى صفوف الاعداء وتبعه أخوه جيروم ولكن قواده احاطوا به واجبروه على الذهاب من طريق جيناب

وفي تلك الساعة اي الساعة الثامنة مساء وقع الحادث الحربي العظيم وهو دخول الحرس الامبراطوري قلب المعمعان فان اربع اورط منه ألفت مربعاً وأخذت تقاوم جيوش الاعداء فكان كل جندي منها يقاتل ثلاثين، حتى فنيت ولم يبق منها الا واحد مع القائد كامبرون فأوعز اليه القائد الانكليزي بأن يسلم فأجاب كامبرون ذاك الجواب التاريخي « ان الحرس يموت ولا يسلم » وأكد بعض المؤرخين ان جماعة منهم انتحروا حتى لا يعيشوا بعد هذا الفشل

أما بقية الحرس الذي كان تحت امرة المارشال لوبو فاستمرت تقاتل من جهة أخرى حتى مكنت بقية الجيش الفرنسوي من التقهقر .

ومما يذكر هنا ان البروسيين اظهروا فظاعة لطخت شرفهم العسكري بالعار عندما اسروا بقية اولئك الابطال فانهم اهانوا المارشال لوبو ابلغ اهانة وذبحوا الجنرال فاندام وجملة من الضباط

ولقد اجمع النقاد الحربيون على ان الخطة الحربية التي وضعها نابوليون في تلك المعركة المعروفة بمعركة واترلو لحدوثها عند قرية واترلو كانت اقوى دليل على سمو فكره وصدق نظره واصالة رأيه. ولكن سوء الطالع الذي تمثل في خطأ جروشي اجهز عليه وذهب بحظه الاسعد

* * *

ولما عاد نابوليون الى باريس رأى من النواب عداء ونفوراً فقرر أن يتنازل لابنه ولقبه بنابوليون الثاني ولكن مجلس النواب ابى ان يعترف به ، فقرر عندئذ ان يترك فرنسا ويسافر الى اميركا فلم يسمح له المتحالفون بالمرور . ولما سد امامه كل طريق ذهب الى البارجة الانكليزية بيلورفون وسلم الى ربانها وكتب الى الوكيل الملكي يخبره بالعدول عن السياسة ويطلب البقاء تحت رعاية القوانين الانكليزية

ولكن الحكومة الانكليزية أبت مع حلفائها الا نفي نابوليون الى جزيرة القديسة هيلانة حيث قضى بقية حياته بعيداً عن ابنه ووحيده « فرخ النسر » الذي نشرنا حكايته الاليمة في كتاب على حدة

وفي ١٥ ديسمبر سنة ١٨٤٠ دوت المدافع في باريس على مسمع من الملايين المحتشدة ، وظهر موكب فخم لم تر العيون اعظم منه هيبة وجلالا ، وما وصل هذا الموكب تحت قوس النصر حتى سمعت الملايين بكاء هو اقرب الى زئير الاسود المتألمة منه الى النوح والاعوال . اولئك هم بقية الجيش الاعظم يبكون ويستبكون عندرؤية قائدهم وامبراطورهم راجعاً على آلة حدباء الى عاصمته حيث يرقد الرقدة الابدية وبجانبه السيف الذي كان يتقلده في معركة مارنجو

اسرة بونابارت

في سنة ١٧٦٤ تزوج شارل بونابرت (والد نابوليون) المولود في اجاكسيو سنة ١٧٤٦ والمتوفى في مونبليه سنة ١٧٨٥ لتيتيا رامولينو المولودة في اجاكسيو سنة ١١٥٠ والمتوفاة في رومة سنة ١٨٣٦ فرزق الزوجان ثلاثة عشر ولداً ، بقي ثمانية منهم أحياء : خمسة فتيان وثلاث بنات وهم :

(١) جوزيف – بكر العائلة . وُلد في كورتي سنة ١٧٦٨ وتوفي في فلورنسه سنة ١٨٤٤ وقد عين ملكا على نابولي (١٨٠٦ — ١٨٠٨) وعلى اسبانيا (١٨٠٨ — ١٨١٣) . وتزوج جوليت كلاري في ١٧ اغسطس سنة ١٧٩٤ . ومن زواجه هذا رزق ابنتين:

١ — زينايد شارلوت جولي : وُلدت في باريس سنة ١٨٠١ وتوفيت في نابولي سنة ١٨٥٤ ، تزوجت سنة ١٨٣٢ بشارل ابن لوسيان بونابرت

٢ — شارلوت : وُلدت في باريس سنة ١٨٠٢ وتوفيت في سارزان سنة ١٨٣٩ تزوجت سنة ١٨٣١ نابليون لويس ابن لويس بونابرت

(٢) نابوليون — أمبراطور الفرنسويين . وُلد في اجاكسيو في ١٥ اغسطس ١٧٦٩ وتزوج سنة ١٧٩٥ جوزفين تاشر دي لاباجري أرملة الجنرال دي بوهارنيه. وقد كان لجوزفين من زوجها الاول ولدان هما :

١ — أوجين : وُلد في باريس سنة ١٧٨١ وتوفي في مونيخ سنة

١٨٢٤ ، وكان نائب الملك في ايطاليا

٢ — هورتنس : تزوجت سنة ١٨٠٢ لويس بونابرت شقيق نابوليون

وتزوج نابوليون مرة ثانية سنة ١٨١٠ بالارشيدوقة ماري لويز ابنة أمبراطور النمسا المولودة في فينا سنة ١٧٩١ والمتوفاة سنة ١٨٤٧ . ومن هذا الزواج وُلد ابن واحد هو : فرنسوا شارل جوزيف نابوليون ملك روما . ولد في باريس في ٢٠ مارس سنة ١٨١١ وتوفي في فينا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٣٢

(٣) لوسيان — وُلد في اجاكسيو سنة ١٧٧٥ وتوفي في فيترب سنة ١٨٤٠ تزوج أولا كريستين بوايه ورزق ابنتين هما : كريستين وشارلوت

وفي سنة ١٨٠٠ تزوج ثانياً الكسندرين دى بليشان ورزق منها تسعة أولاد وهم : شارل ولتيتيا وجان وبول ماري ولويس لوسيان وبيار وانطوان والكسندرين وكونستانس

ورزق بيار ولدين : جان ماركيزة فيلنوف (١٨٦١—١٩١١) ورولان المولود سنة ١٨٥٨ وهو عالم وعضو في المعهد الفرنسي ويعرف باسم البرنس رولان بونابرت

(٤) لويس — ولد في اجاكسيو سنة ١٧٧٨ وتوفي في ليفورن سنة ١٨٤٨ ، تزوج سنة ١٨٠٢ هورتنس ابنة جوزفين ورزق منها ثلاثة أولاد وهم :

١ — نابوليون شارل (١٨٠٢ — ١٨٠٧)

٢ - نابوليون لويس (١٨٠٤ — ١٨٣١) تزوج سنة ١٨٢٧

شارلوت ابنة عمه جوزيف

٣ ـ لويس نابوليون المولود سنة ١٨٠٨ . وهو الذي اصبح امبراطور الفرنسويين وعرف بنابوليون الثالث ـ توفي في شيزلهرست سنة ١٨٧٣

وتزوج الامبراطور نابوليون الثالث في سنة ١٨٥٥ اوجيني دي مونتيجو كونتس تيبا فرزق ولداً واحداً وهو :

نابوليون اوجين لويس جان جوزيف الملقب بالبرنس الامبراطوري : وُلد في باريس سنة ١٨٥٦ وقتل في زولولند سنة ١٨٧٩ متطوعاً في الجيش الانكليزي

(٥) جيروم ـ وُلد في اجاكسيو سنة ١٧٨٤ وتوفي في فيليجنيس سنة ١٨٦٠ وهو ملك وستفاليا

تزوج اولا اليزا باترسن (سنة ١٨٠٣) فرزق ولداً سمي جيروم (١٨٠٥ ـ ١٨٧٠)

وتزوج ثانياً بعد طلاق امرأته الاولى كاترين اميرة ورتمبرج سنة ١٨٠٧ فرزق ثلاثة اولاد وهم : جيروم نابوليون ،وماتيلد ، ونابوليون (المعروف باسم البرنس نابوليون)

وتزوج البرنس نابوليون سنة ١٨٥٩ كلوتيلد ابنة ملك ايتاليا فكتور عمانوئيل الاول فرزق ثلاثة اولاد وهم :

لتيتيا المولودة سنة ١٨٦٦ ـ امرأة دوق اوسته

نابوليون لويس المولود سنة ١٨٦٤ ـ وهوجنرال في الجيش الروسي

ونابوليون فكتور المولود سنة ١٨٦٢ وهو البكر وقد نفي

من فرنسا سنة ١٨٨٦ . وهو الان رئيس اسرة بونابرت ويعرف باسم البرنس فيكتور . وقد تزوج سنة ١٩١٠ البرنسس كليمنتين ابنة ملك البلجيك السابق

(٦) البزا — ولدت في اجاكسيو سنة ١٨٧٧ وتوفيت في تريسته سنة ١٨٢٠ تزوجت ضابطاً كورسيكياً اسمه فليكس باكيوتشي سنة ١٧٩٧ . وفي سنة ١٨٠٩ لقبت بغراندوقة توسكانا ولها ولدان :

نابوليون البزا (١٨٠٦ — ١٨٦٩)

شارل جيروم (١٨١٠ — ١٨٣٠)

(٧) بولين — وُلدت في اجاكسيو سنة ١٧٨٠ توفيت في فلورنسا سنة ١٨٢٥ تزوجت اولا الجنرال لكلرك سنة ١٨٠١ وبعد ان ترملت تزوجت سنة ١٨٠٣ البرنس بورجيز ولقبت دوقة جواستالا

(٨) كارولين — ولدت في اجاكسيو سنة ١٧٨٢ توفيت في فلورنسا سنة ١٨٣٩ تزوجت الجنرال مورات سنة ١٨٠٠ واصبحت معه ملكة نابولي وقد رزقت منه ولدين

نابوليون اشيل (١٨٠١ — ١٨٤١) وكان كاتباً

ونابوليون لوسيان شارل (١٨٠٣ — ١٨٧٨) وكان عضواً في مجلس الشيوخ في عهد الامبراطورية الثانية . وقد رزق ثلاثة اولادوهم . جواشيم نابوليون مورات (١٨٣٤ — ١٩٠١) واشيل نابوليون مورات (١٨٤٧ — ١٨٩٥) ولويس نابوليون مورات المولود في باريس سنة ١٨٥١ . وقد رزق جواشيم نابوليون ابنتين وابناً هو البرنس جواشيم مورات المولود سنة ١٨٥٦